من الإعجاز البياني في مطلع تنزل الوحي القرآني

(قراءة في البلاغة والمناسبات)

محمد أمين محمد أبو شهبة

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود– جامعة الأزهر– جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:MohamedAboushhba.4192@azhar.edu.eg

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير مبعوث إلى خير أمة بخير دينٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا البحث يتناول مطلع الوحي القرآني من جهتين:

الأولى: التحليل البياني لآيات مطلع الوحي تحليلًا يبدأ بالوقوف مع دلالة المفردة القرآنيَّة، وبيان مدى دقَّتها وملاءمتها لأخواتها، وللسياق التي وردت فيه، ويبرز الألوان البلاغيَّة التي ضمَّها المطلع في مفرداته، وتراكيبه.

الثانية: التناسب؛ وقد تناول البحث التناسب في مطلع الوحي بدايةً من التناسب بين آيات المطلع، والتناسب بين المطلع وبين سياق سورته الكريمة، ثم التناسب في السياقين: الترتيلي والتنزيلي، ثم التناسب بين مطلع الوحي وخاتمته، المطلع وبين المقصود الأعظم للقرآن الكريم، وحِكَمِ تنزيله. وأسال الله التوفيق، والسداد، والوفاء بما استطعت من حق كتاب الله عليّ، وهو حسبي ونعم الوكيل.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة– التناسب– السياق– اقرأ– رب– علق– علّم الإنسان.

Graphic miracle at the beginning of the Quranic revelation

Read on rhetoric and proportionality

Mohammed Amin Abou Shhba .

Department of Rhetoric and Criticism, College of Arabic language, Itay Al – Baroud , AlAzhar university Arabic Republic of Egypt .

E-mail adress:MohamedAboushhba.4192@azhar.edu.eg

Abstract

Thanks for Allah , lord of the worlds , prayers and peace be upon the best sent to the best nation with a fine religion and upon all his family and companions .

The research deals with the beginning of the Quranic revelation from two sides :

<u>The first</u>: The graphic analysis of the verses at the beginning of the revelation starts with standing with the significance of the Quranic vocabulary and indicating its accuracy and suitability for its sisters and context in which it is mentioned .

Also highlights the rhetorical colours that included in the insider in its vocabulary and structures

<u>The second :</u> porportionality

The study deals with the proportionality at the beginning of the revelation , starts with proporationality between the verses of the insider , proportionality between the verses and context of its honorable surah, proportionality by downloading and order ., then porportionality between the verses of insider and greater purpose of the Holy Quran and ruling on its transmission , Finally proporationality between the beginning and the end of the revelation .

I ask God to great success , sincerity and fulfill what I can from the right of the book of God .

<u>Key words :</u>

Rhetoric – Proportionality –Context – Read – Leech – Teach human

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، الكريم الأكرم، خلق الإنسان وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وأمره في أولى آي ذكره الحكيم أن يقرأ باسم ربِّه الذي خلق؛ لأنَّ تلك القراءة هي مفتاح باب حياة النور، والهداية في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى صراط النعيم المقيم.

والصَّلاة والسَّلام على سيِّد رُسُلِه، الذي تلقَّى القرآن من لَدُن عليمٍ حكيمٍ، فأعاد به صياغة الإنسانيَّة على نحوٍ جديدٍ، يجعلها أهلًا لحمل أمانة الخلافة عن الله، والأخذ بيد الخلق إلى الحقّ، كان -ﷺ- خلقه القرآن، ووصيَّته القرآن، وميراثه القرآن، وهو الذي قال -ﷺ-: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ القرآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١).

وبعد

فقد تنزَّل الذِّكْر الحكيم على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث، وزادت آياته على ستَّة آلاف آية، زخرت بآلاف الأوامر، والنواهي، والأخبار، والعقائد، والأحكام، وحين يصطفي الله من بين آيات ذِكْره الحكيم خمس آياتٍ يبدأ بها كتابه، وتكون أوَّل شعاعٍ في طريق النور المُؤْذِن بميلاد خير أمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس، والمعلن عن تنفُّس صُبْحٍ جديدٍ، يبدد ظُلُمات الشِّرك، والجهل، والظلم، فلا بُدَّ أن تكون تلك اللحظة هي أشرف لحظةٍ مرَّت بالأرض في تاريخها، ولا بُدَّ أن تطوي الآيات دقائق وأسرارًا تجعلها أنسب ما يبدأ الله بها كتابه الكريم.

يستشعر المرء قدر تلك اللحظة حين ينظر إلى جزيرة العرب قبل نزول القرآن، فيري أرضًا مفعمةً بسيل الشِّرك، والوثنيَّة، والظلم، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، ثمَّ صارت بالقرآن خيرَ أمَّة أُخْرِجت للنَّاس، وارتقت من سفح الجاهليَّة إلى قمَّة بنيانٍ حضاريٍّ سادت به الدنيا، وغيَّرت وجهَ العالم بقِيَمِها الأخلاقيَّة التي أبقتها قرونًا في صدارة المشهد الحضاري.

ثمَّ يستشعر المرء قدرَ تلك اللحظة مرَّةً أخرى، حين ينظر الآن إلى أمَّة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ كيف كانت؟ ثمَّ أين صارت؟ حين انحرفت عن مسار النور، ودخلت في ظلمات الجهل، والظلم، والتخلف حتى جاوزت في كثيرٍ من مناحي حياتها الجاهليَّة الأولى؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾. [الأنفال: ٥٣].

(١) الحديث رواه البخاري، كتاب فضَائِل القرآن، باب «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعلَّمَ القرآن وَعَلَّمَهُ».

وكنتُ كلَّما عاودتُ النظر في آيات مطلع الوحي الإلهي تكشَّفت لي أسرار، ولطائف حتى صار المطلع كفصِّ الماس «يعطيك كلُّ ضِلَع منه شعاعًا، فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جملةً، بهرك بألوان الطَّيف كلِّها، فلاَ تدري ماذا تأخذ عينك؟ وماذا تدع؟ ولعلَّك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى منها أكثر ممَّا رأيت، وهكذا ترى محيطًا مترامي الأطراف لا تحدُّه عقول الأفراد والأجيال»(١).

ولذا عقدتُ العزمَ على العَيْش في أنوار مطلع الوحي القرآني فهمًا، وتدبُّرًا، وتحليلًا، ووقوفًا على ألوان المناسبات التي تضمَّنها المطلع في سياقاته المختلفة، لعلَّ اللهَ يَمُنُّ عليَّ بنور القلب، والبصيرة؛ لأوفِّيَ ما استطعت من حقِّه عليَّ فهمًا، وإفهامًا، ونُصْحًا لكتابه العزيز.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتيَ بعد المقدِّمة في تمهيدٍ، ومبحثَيْن، وخاتمة.

جاء التمهيد تعريفًا بسورة العَلَق، وفضلها، وموضوعها، وبيانًا لأهمية هذا المطلع الشريف.

وجاء المبحث الأوَّل تحليلًا بيانيًّا لآيات المطلع.

أمَّا المبحث الثاني فقد جاء بيانًا لألوان التناسب بين آيات المطلع، ثمَّ التناسب بينه وبين سياق سورته، ثمَّ التناسب في السياق الترتيلي، والسياق التنزيلي(٢)، ثمَّ التناسب بين المطلع وبيَّن خاتمة الوحي الإلهي، ثمَّ التناسب بين المطلع وبين المقصود الأعظم للقرآن وحكم نزوله.

وقد بذلتُ في البحث وسعي، راجيًا ربِّي أن يشرحَ به صدور المؤمنين، فيزدادوا إيمانًا إلى إيمانهم، ربَّنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وبالإجابة جدير.

---

(١) النبأ العظيم- نظراتٌ جديدةٌ في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ط. دار القلم، الطبعة التاسعة، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م: صـ١٥٢.

(٢) **أقصد بالتناسب في السياق التنزيلي**: التناسب بين مطلع العَلَق، وبين ما تلاه في النزول على المدى القريب، وكذا التناسب بينه -باعتباره أوَّل ما نزل- وبين أوَّل ما نزل بالمدينة، ثمَّ التناسب بينه وبين آخر ما نزل من القرآن.

تمهيد

سورة العَلَق مكيَّةٌ باتِّفاقٍ، والآيات الخمس الأولى منها هي أوَّل ما نزل من الوحي على الإطلاق، كما دلَّت الأحاديث الصحيحة، وكان نزولها بغار حراء، حين كان يجاور فيه النبي -ﷺ- في رمضان سنة أربعين بعد عام الفيل(١)، ولا توجد سورة في القرآن بُدِئَت، أو خُتِمَت بما بُدِئَت أو خُتِمَتْ به(٢).

وصحَّ في فضل سورة العَلَق أنَّها من المفصل الذي فُضِّل به النبي -ﷺ-، ففي حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله -ﷺ-: «**أُعطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ الطِّوَالَ، ومَكَانَ الزَّبُورِ المئِينَ، ومَكَانَ الإِنْجِيلِ المَثَانِيَ، وفُضِّلْتُ بالمُفَصَّلِ**»(٣).

ومقصود السورة -كما ذَكَرَ الإمام البقاعي- هو: «الأمر بعبادة مَنْ له الخَلْقُ والأمْرُ، شكرًا لإحسانه، واجتنابًا لكفرانه، طمعًا في جنانه، وخوفًا من نيرانه، لما ثبت من أنَّه يدين العباد يوم المعاد»(٤).

أمَّا موضوع السورة الرئيس فهو تجليات صفة الربوبيَّة على الخَلْق، وخاصَّةً الإنسان الذي خلقه الله وهداه، وتعهَّده بالعلم والإمداد، واسمه الخالق الأكرم المعلم منذ كان علقة إلى أن تكون الرجعى، ثمَّ بيان موقف الناس في تلقِّي هذه الربوبيَّة، إمَّا بالشكر والإيمان، وإمَّا بالكفران والعناد، مع ترغيبٍ وترهيبٍ لكلِّ صنفٍ على حدةٍ، فالسورة مفتاحها كلمة: «ربّ»، منها تفيض السورة برمَّتها، وعلى معناها ومقتضياتها تدور، فهو تعالى لأنه ربُّ الإنسان أنعم على الإنسان، وتلقِّي الإنسان النِّعمة، فكفر أو شكر، ومَنْ كفر عاداه الله، وَمَنْ شكر تولَّاه الله، وسيرًا على هذا يتجلَّى ربُّنا أوَّل السورة ربًّا مُنعِمًا، ووسطها ربًّا مُمْهِلًا غير مُهْمِلٍ، وآخرها ربًّا موعدًا واعدًا(٥).

---

(١) انظر الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، د. ت: م١ صـ٦٨.

(٢) بيان المعاني، لملا علي حويش، مطبعة الترقي، ١٣٨٢ه: ج١ صـ٦٦.

(٣) موسوعة صحيح فضائل سور القرآن، محمد رزق طرهوني، ط. دار ابن القيِّم-السعوديَّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ه: ج٢ صـ٢٩٥، قال: «الحَدِيثُ حَسَنٌ بشَواهِدِه»، والمقصود بحزب المفصَّل: من بداية سورة الحجرات، أو سورة «ق» إلى آخر القرآن على الأرجح.

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للإمام البقاعي، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه= ١٩٨٧م: ج٣ صـ٢١٣.

(٥) محاولة لدراسة سورة العَلَق، للشاهد البوشيخي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بجامعة سيِّد محمد بن عبد الله بفاسر، عدد خاص ١٩٩١م: صـ١٠٣.

وأمَّا مطلع سورة العَلَق فهو أوَّل ما نزل من القرآن على الإطلاق، ولا رَيْبَ أنَّ لأوَّل آيات الوحي نزولًا أهميةً بالغةً، ودلالاتٍ وإشاراتٍ متكاثرةً يجب التوقُّف عندها فهمًا، وتدبُّرًا، وتحليلًا، وبيانًا.

وتتجلَّى تلك الأهمية حين تقرأ المطلع وعينك على واقع الإنسان قبل نزوله، لا سيَّما في أرض الجزيرة العربيَّة، التي كان يرتع أهلها في سفح الجاهليَّة، ويتقلَّبون في ظلمات الشِّرك، والوثنيَّة، والفواحش، والاضطراب في القِيَم، والعقائد، والتصوُّرات، والأفكار، والسلوك، وبَقَوْا كذلك حتَّى صرخت الأرض بلسان حالها ضارعةً إلى ربِّها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] أخرج النَّاس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم إلى صراط العزيز الحميد، وكان هذا المطلع هو الشعاع الأوَّل من هذا النور الهادي إلى صراطٍ مستقيمٍ، جاء ليقول: اقرأ آيات الكون المنظور، والكتاب المسطور، مستعينًا بربِّك الذي خلقك من عَلَق، وعلَّمك ما لم تكن تعلم، فإنَّ تلك القراءة الراشدة هي السبيل لإحياء الأرض بعد موتها.

جاء المطلع ليكون مبدأ الغيث الذي نزل على أرضٍ ميتةٍ، فاهتزَّت ورَبَتْ، وأنبتت قِيَمًا راقيةً غيَّرت وجهَ العالم، ودفعت بأمَّة المصطفى إلى صدارة المشهد الحضاري، كما أعادت صياغة مَنْ آمَنَ على نحوٍ يجعله بحقٍّ خليفة الله في أرضه، يقيم حركتها وَفْق مراد خالقه، ويسير فيها بنور دينه القيِّم.

أراد ربُّنا -سبحانه- أن يكون مفتاح هذا الدِّين والأساس الذي تبنى عليه حضارة خير أمَّةٍ أُخْرِجت للنَّاس في هذا المطلع الذي أمر فيه بالقراءة مرَّتَيْن، وذكر العلم ثلاث مرَّاتٍ، كما ذكر القلم مرَّةً ،والإنسان مرَّتَيْن، وتعرّف في المطلع إلى عباده ربًّا خالقًا معلمًا، كما تعرَّف إليهم باسمه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ الذي لم يرد ذِكْره في القرآن إلا في هذا المطلع الشَّريف.

فالمطلع يلفت كلّ مَنْ يتأتى خطابه إلى وجوب قراءة آيات الكون المنظور، والوحي المسطور، مستعينًا بربِّه الذي خلقه وعلَّمه، فتلك القراءة الفاقهة تهدي إلى التسليم بحاجة العباد إلى المنهج الذي يُقِيم الحياة على مراد الله، وتؤكِّد أنَّ حاجة الإنسان إلى منهج الله أشدُّ من حاجته إلى الطَّعام والشَّراب؛ إذ لا يستطيع العبد إدراك مصالحه وسعادته بنفسه، بل إنَّه يطغى إذا استغنى، ولا يصلح حاله إلا شعوره -دومًا- بافتقاره إلى خالقه ورازقه الذي مَنَّ عليه بنِعْمَة الإيجاد، والإمداد، والهداية، والرَّشاد.

ومن عجبٍ أن يأتي الأمر أوَّلًا لنبيٍّ أمِّيٍّ، في إشارةٍ إلى أنَّ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فيها صلاحُ الحال لِمَنْ تعلَّم القراءة، ولِمَنْ لم يتعلَّمها؛ لأنَّها بداية حياة النور، والشعاع الأوَّل الذي جاء يبدِّد ظلمات الجاهليَّة، فهذه اللحظة التي نزل فيها هذا

المطلع هي بغير شكٍّ «أشرف لحظة مرَّت بها الأرض في تاريخها؛ لأنَّها اللحظة التي أذنت بميلاد أمَّة النبيِّ -ﷺ-؛ كما إنَّها حدَّدت الجهة التي يتطلَّع إليها الإنسان، ويتلقَّى عنها تصوراته، وقِيَمه، وموازينه، إنَّها ليست الأرض وليس الهوى، إنَّما هي السماء، والوحي الإلهي»(١).

يقول ابن كثير-رحمه الله-: «هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ هِيَ أَوَّلُ رَحْمَةٍ رَحِمَ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ، وَأَوَّلُ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَفِيهَا: التَّنْبِيهُ عَلَى ابْتِدَاءِ خَلْقِ الْإِنسان مِنْ عَلَقٍ، وَأَنَّ مِنْ كَرَمِهِ -تَعَالَى- أَنْ عَلَّمَ الْإِنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ، فَشَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ بِالْعِلْمِ، وَهُوَ الْقَدْرُ الذي امتاز به أبو البشريَّة آدَمُ عَلَى سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ»(٢).

هذا وقد جمع المطلع-على قصره- مقاصد القرآن، حتَّى قال ابن حجر العسقلاني -رَحِمَه الله: «إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ جَدِيرَةٌ أَنْ تُسَمَّى «عُنْوَانُ الْقرآن»؛ لِأَنَّ عُنْوَانَ الْكِتَابِ يَجْمَعُ مَقَاصِدَهُ بِعِبَارَةٍ وَجِيزَةٍ فِي أَوَّلِهِ، وَبَيَانُ كَوْنِهَا اشْتَمَلَتْ عَلَى مَقَاصِدِ الْقرآن: أَنَّهَا -أي: مَقَاصِد القرآن- تَنْحَصِرُ فِي التَّوْحِيدِ، وَالْأَحْكَامِ، وَالْأَخْبَارِ، وَقَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْبَدْءِ فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ، وَفِي هَذا الْإِشَارَةُ إِلَى الْأَحْكَامِ، وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ، وَإِثْبَاتِ ذَاتِهِ، وَصِفَاتِهِ مِنْ صِفَةِ ذَاتٍ، وَصِفَةِ فِعْلٍ وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أُصُولِ الدِّينِ، وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾»(٣).

وكما جمع المطلع مقاصد القرآن الكريم في خمس آياتٍ، فقد وضع كذلك معالمَ الرّسالة الإسلامية في عمومها المطلق، وشمولها الأعم، مبيّنًا أنَّها رسالة العلم، والمعرفة، والعقل، والعمل.

وهي أعظم نِعَم الله على الإنسانيَّة، وممَّا يعطيها هذه الرحابة ما نراه من اتِّساعٍ في دلالات كلمات المطلع، وامتدادٍ يتجاوز حدود الزَّمان، والمكان، فالأفعال تحذف مفاعيلها غالبًا: ﴿ٱقْرَأْ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، والأسماء يأتي منها الأعم: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فلا تجد

(١) في ظلال القرآن، سيِّد قطب، طبعة: دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٠٨ه= ١٩٨٨م: ج٦ صـ٣٩٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق: طه عبد الرؤف، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه= ١٩٩٦م: ج٤ صـ٢٥١.
(٣) فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ ابن باز، ومحب الدين الخطيب، ط. دار الفكر- بيروت، د. ت: ج٨ صـ٧١٩.

ذِكْرًا لعربيٍّ، ولا عجميٍّ، ولا ذَكَرٍ، ولا أنثى، لكنَّه الإنسان، فهو مطلع يُؤْذِنُ بعموم الرسالة، وأنَّ هدفها: هداية الإنسان إلى ربِّه الذي خلق.
وبهذه الآيات أُعْطِيَت الأمَّة مفاتيح الإصلاح، والتقدُّم، والرُّقي؛ لتعلم أنَّه لا إصلاح، ولا مدنيَّة، ولا حضارة بغير علمٍ، ومعرفةٍ؛ فالجهل -وهو نقيض العلم- لا يأتي إلَّا بالشرّ، والفساد، والتخلف، كما إن الهداية إلى معرفة الحقِّ، واعتناقه، والحرص على إقامة معالمه، والدعوة إليه، لا يكون إلا مع العلم، ولا يُكْتَب للعلم النور والانتشار إلا إذا سجَّله القلم، ونشره وأعلن عنه(١).

(١) انظر مجلة البيان، مجلة تصدر عن المنتدى الإسلامي- خصائص المرحلة المكيَّة في مجال المعرفة، د/ محمد محزون، عدد (١٢٢): صـ٦٦.

المبحث الأول

مطلع الوحي (قراءة في البلاغة)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾:

هذا أوَّل غيث السَّماء تنزيلًا على قلب المصطفى -ﷺ- وأوَّل شعاعٍ من شمس الرِّسالة السَّماويَّة التي بدَّدت ظلمات الجاهليَّة الحالكة.

ويستطيع مَنْ له مسكةٌ من عقلٍ -إذا تلى الآية حقَّ تلاوتها- أن يدرك أنَّ القرآن كلام الله تعالى، وأنَّه كتاب الإنسانيَّة الخالد على مدى الدهر؛ وذلك لأنَّ أوَّل هداياته كانت تلك النفحة الربانيَّة للسمو بالإنسانيَّة، وذلك بأن أنعم عليهم بنعمة الخلق، ونعمة العلم(١).

وسنقف مع الآية الشريفة وقفاتٍ عدَّة، ونستهلها بالحديث عن دلالة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في أصل اللغة، والمراد بها في الآية الكريمة.

جاء في لسان العرب: «قرأ القُرآن: التَّنْزِيل الْعَزِيز، كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهُ كِتَابًا وقُرْآنًا وفُرْقانًا، وَمَعْنَى القُرآن: مَعْنَى الْجَمْعِ، وَسُمِّيَ قُرْآنًا؛ لأَنَّه يَجْمَعُ السُّوَر، فيَضُمُّها. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧﴾ [القيامة: ١٧]، أَي: جَمْعَه وقِراءَته، وقولهم: قَرَأْتُ الشيءَ قُرْآنًا، أي: جَمَعْتُه وضَمَمْتُ بعضَه إِلى بَعْضٍ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَا قَرأَتْ الناقةُ سَلىً قَطُّ، أَي: لَمْ تَضمّ رَحِمها على ولدٍ، أي: لم تجمع جنينًا، وَمَعْنَى قَرَأْتُ القُرآن: لَفَظْتُ بِهِ مَجْمُوعًا، أَي: أَلقَيْتُه، وتَقَرَّأْ: تَفَقَّه، وتَقَرَّأَ: تَنَسَّكَ، وقَرَأَ عَلَيْهِ السلامَ، وأَقْرَأَه، أي: أَبلَغه»(٢).

فالأصل في هذا اللفظ: الجمع والضمُّ، وكلُّ شيءٍ جمعته فقد قرأته، وسُمِّي القرآن؛ لأنَّه جمع القصص، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، والآيات، والسور بعضها إلى بعضٍ، ويفيد اللفظ كذلك معنى التفقه، والتنسك، والإبلاغ، وهى معانٍ قريبةٌ يرتبط بعضها ببعضٍ.

لكن المعنى المحوري لمادَّة «قرأ» كما ذكر العلامة الدكتور/ محمد حسن جبل هو: تَجَمُّع الشيء السائل أو المتحرّك، في الباطن أو الحيز، إلى أجلٍ

(١) تفسير سورة العَلَق، د/ فضل حسن عباس، مجلة هدى الإسلام، مجلد ١٢، عدد ١٠ يناير ١٩٦٩م.
(٢) لسان العرب، لابن منظور: مادة «قرأ».

يُطرح أو يُخرَج بعده، كالدَّم، والحمل، والسُمّ في الجوف إلى أجل، والغائب والبعيد كأنَّهما في باطن مَغِيبِهما، ولهما أجل يعودان بعده عادةً.

ومن هذا: القراءة، وأصلها: حِفْظ المقروء واستيعابه في القَلْب، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: ٦]، والمعنى -والله أعلم- سَنحفظك أو سنجمعه في صدرك، ومن هذا المعنى نفسه يمكن أن تستعمل في قراءة الكتاب، أي: بالنظر بالعين، أو معناه: أنَّ رموز الكتاب التي فيه قد انتقلت هي ومعانيها إلى صدرك، حين اطّلعت عليها، ثمَّ استعمل في التلفظ بما هو محفوظٌ في القلب، وإلقائه كلامًا صوتيًّا، والقرآن سُمِّي كذلك لمعنى التلفُّظ بالمجموع في القلب، وقد عُلِّلت التسمية –أيضًا- بأنَّه جامع لخير تشريعات الدِّين والحياة، وشأنه أنَّه مجتمعٌ في الصدور.

والفعل «قرأ» مع الحرف «على» يعني: القراءة العلنيَّة للإسماع ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١﴾، [الانشقاق: ٢١]، وللمعنى الذي ذكرناه للقراءة من أنَّ أصلها: الجمع في الباطن ما يؤيِّده في قولهم: «تَقَرَّأَ الرَّجُل، أي: تَفَقَّه»، والفقه هو استيعاب المعنى في القلب، وكذلك «تَقَرَّأَ: تنسَّك، وهو قارئٌ، أي: ناسكٌ»، من حيث إنَّ القراءة هي سبيل التَّفقه وموضوعه، والقرآن هو الموجِّه للتنسُّك(١).

وعلى هذا يكون معنى ﴿ٱقْرَأْ﴾ الموجَّه ابتداءً للنبيِّ -ﷺ- كُنْ قارئًا، جامعًا ما يُوحَى إليك في صدرك، تتلفَّظ به في أيِّ وقتٍ من غير نسيانٍ، فَاقِهًا معانيه، متعبدًا به لربِّك، واجمع إلى هذا النظر في كتاب الكون المنظور الذى خلقه ربُّك، مستعينًا في هذا كلِّه بقوَّته، وعونه؛ لأنَّه الخالق الذى خلق الإنسان، وعلمه ما لم يكن يعلم.

قال ابن عبَّاسٍ -رضى الله عنه- في تفسير آية القيامة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، [القيامة: ١٧] أي: علينا جمع حفظه فِي قَلْبك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾، أي:

(١) انظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القران الكريم، للأستاذ الدكتور/ محمد حسن جبل، مادة «قرأ»، ط. مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

حفظ قِرَاءَة جِبْرِيل عَلَيْك، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ ، أي: قَرَأَهُ جِبْرِيل عَلَيْك، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاقرأ أَنْت يَا مُحَمَّد خَلفه(١).

وقد ورد الفعل ﴿ٱقْرَأْ﴾ وتصريفاته في القرآن الكريم في ست عشرة آية، أكثرها كان في قراءة القرآن الكريم، وبعضها في قراءة الكتب السابقة، وجاء في ثلاث آياتٍ تتعلَّق بقراءة كتاب حساب العبد يوم القيامة(٢).

وتبدو المناسبة واضحة بين كثرة الآيات المتعلِّقة بقراءة كتاب الوحي، وبين قلَّة الآيات المتعلِّقة بقراءة كتاب العبد يوم القيامة، ذلك أنَّ كتاب الوحي يصحب العبد من مولده إلى لقاء ربِّه، وهي رحلةٌ طويلةٌ على صراط الوحي، بينما كتاب الحساب هو ثمرة هذه الرحلة، ولحظة الحصاد أقصر كثيرًا من زمن الغرس والرعاية.

ومن الباحثين مَنْ رجَّح حمل دلالة ﴿ٱقْرَأْ﴾ في الآية الكريمة، وفى الاستعمال القرآني عمومًا على معنى: «اجهر، وبلِّغ وأعلن»، وأنَّه بهذا المعنى يقدِّم الدلالة الأوضح لاستعمال القرآن للفعل «قرأ» وتصريفاته، وعليه يكون معنى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: أعلن، وادعُ، واجهر باسم ربِّك الخالق الذى لا معبود غيره، فهو الذى خلق الإنسان من علق، وهو ربُّك الأكرم الذى علَّم بالقلم(٣).

وفى النفس من هذا الكلام أشياء؛ لأنَّ أصل مادَّة «قرأ» لا يدلُّ بنفسه على معنى: أعلن، وبلِّغ، واجهر، بل يفيد معنى الجهر إذا عُدِّي بالحرف «على»، ثمَّ إنَّ النبيَّ –ﷺ– لم يؤمر بجهرٍ، أو تبليغٍ إلا بعد زمنٍ ليس بالقصير، ولو كانت هذه هي دلالته الراجحة، لسارع النبي –ﷺ– إلى الجهر بما أُنْزِل إليه، كيف وهو لا يعرف بعد أنَّه رسول الله، وأنَّ الذي رآه هو أمين الوحي، وأنَّ الذي تلي عليه قرآن، ودين أرسل به إلى الناس؟!

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للفيروز آبادي، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت، ج١ صـ٤٩٠.

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار المعرفة- بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م: صـ٦٨٤، ٦٨٥.

(٣) «اقرأ» دراسة دلاليَّة نحويَّة، محمد عبد الله جبر، مجلة الملتقى المعرفى– المغرب، عدد (٢٣) لسنة ٢٠١٠م: من صـ٢١– صـ٢٥ بتصرفٍ كبيرٍ.

ثمَّ إنَّ خصومة الأنبياء مع أقوامهم لم تكن في أمر الربوبيَّة، أو الخالقيَّة، فهذا أمرٌ يؤمنون به ويقرُّونه، بل سجَّل القرآن ذلك عنهم في كثيرٍ من آياته: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلا وجه -إذَنْ- لأمره بأن يجهر ويعلن ويبلِّغ اسم ربِّه الذى خلق، فهم يعرفون ذلك، ولا ينكرونه.

ولعلَّ الذي حمل الباحث على توجيه دلالة ﴿ٱقْرَأْ﴾ هذا المنحى أنَّ الأمر في الآية موجَّهٌ إلى النبي -ﷺ- ابتداءً، وهو نبيٌّ أُمِّيٌّ لا يقرأ، وفى حمله على معنى: «اجهر وأعلن» ما يعفيه من التفسير والتبرير لتوجيه الأمر بالقراءة للنبيِّ الأمِّيِّ.

لكن في دلالة القراءة ذاتها ما يدفع ذلك؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ تَكُونُ مِنْ مَكْتُوبٍ، وَتَكُونُ مِنْ مَتْلُوٍّ، يَتْلُو منه جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وَهَذَا أظهر لِلْمُعْجِزَةِ؛ لِأَنَّ الْأُمِّيَّ بِالْأَمْسِ صَارَ مُعَلِّمًا الْيَوْمَ، وَقَدْ أَشَارَ السِّيَاقُ إِلَى نَوْعَيِ الْقِرَاءَةِ، حَيْثُ جَمَعَ الْقِرَاءَةَ مَعَ التَّعْلِيمِ بِالْقَلَمِ(١).

وقد كان النبي -ﷺ- يحرّك لسانه بما يلقى إليه من الوحي من قبل أن ينقضي عنه، فنهاه ربُّه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦]، وطمأنه سبحانه بأنَّه قد تكفَّل لجمعه في صدره، وبقرآنه، أي: إخراجه على لسانه مضمومًا بعضه إلى بعضٍ على الوجه الذى أبلغه إيَّاه جبريل، وهذا المعنى هو ذاته المعنى الذى ألمح إليه سبحانه في قوله تعالى مخاطبًا عبده: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [الأعلى: ٦] أي: نجعلك قادرًا على جمع وضمِّ أركان ما يوحى إليك، فتتلوه على الناس بدون أن تنسى منه شيئًا.

ودلالة الضمِّ والجمع التي في «قرأ» تتَّسع لقراءة آيات الله المنظورة في الكون، وضمِّ بعضها إلى بعضٍ؛ للوصول إلى معرفة الخالق، وإذا كان معنى القرآن أنَّه آياتٌ يتلو بعضها بعضًا، فها هو -جلَّ شأنه- يُطلق على مظاهر

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي، أكمله: تلميذه الشيخ/ عطية سالم، ط. دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه: ج٦ صـ٨٨.

الخلق في السموات والأرض كلها «آيات» ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠][١].

وقد اختلف في معنى الأمر ﴿اقْرَأْ﴾ وفي المخاطب به، فقيل: إنَّ الأمر للتَّنْبِيهِ وَاللفت لِمَا سَيُلْقَى إِلَيْهِ، وَقيل: هو عَلَى بَابِهِ مِنَ الطَّلَبِ لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ فِي الْحَالِ، وَإِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ بعد ذلك[٢].

واختار ابن عاشور –رَحِمَه الله– الرأي الثاني، فقال: «وَالْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِهِ مِنَ الطَّلَبِ لِتَحْصِيلِ فِعْلٍ فِي الْحَالِ، أَوِ الِاسْتِقْبَالِ، فَالْمَطْلُوبُ بِقَوْلِهِ: ﴿اقْرَأْ﴾ أَنْ يَفْعَلَ الْقِرَاءَةَ فِي الْحَالِ، أَوِ الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ، أَيْ: أَنْ يَقُولَ مَا سَيُمْلَى عَلَيْهِ، وَالْقَرِينَةُ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ بِقِرَاءَةٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ: أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ إِمْلَاءُ كَلَامٍ عَلَيْهِ مَحْفُوظٍ فَيُطْلَبَ مِنْهُ قِرَاءَتُهُ، وَلَا سُلِّمَتْ إِلَيْهِ صَحِيفَةٌ فَيُطْلَبَ مِنْهُ قِرَاءَة»[٣].

وبذا يكون الأمر تكليفيًّا خوطب به النبي –ﷺ– ابتداءً، ويخاطب به كلُّ مَنْ يتأتَّى خطابه إلى قيام الساعة.

وقيل: إنَّ الأمر في الآية تكويني، خوطب به النبي –ﷺ–، والمعنى: كن بأمر الله قارئًا، وإن لم يكن كاتبًا، فإنَّه سينزل عليه كتاب يقرؤه، وإن كان لا يكتبه؛ ولذلك وصف الربّ بـ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، أي: الذي أوجد تلك الكائنات التي لا يحيط بها الوصف، قادر أن يوجد فيك القراءة، وإن لم يسبق لك تعلُّمها؛ لأنَّك لم تكن تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فكأنّ الله -سبحانه- يقول: كن قارئًا بقدرتي وإرادتي[٤].

ولعلَّ مَنْ حمل معنى الأمر على التكوين، قد اختار ذلك لأنَّ حمله على التكليف يقتضي أن يكلَّف النبي –ﷺ– ما ليس في وُسْعه؛ إذ كيف يُؤْمَر بالقراءة وهو الأمِّيُّ الذى لا يعرفها؟ والله –سبحانه- لا يُكَلِّف نفسًا إلَّا وُسْعها، وهذا

(١) الإعجاز البياني في القرآن في سورة العلق، د/ محمد مبارك المزيودي، من البحوث المنشورة في دار المنظومة: صـ٥.
(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: ج٨ صـ٧١٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، ط. دار سحنون، د. ت: ج١٥ صـ٤٣٥.
(٤) محاسن التأويل، للإمام محمد جمال الدين القاسمي، صحَّحه: محمد باسل عيون، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، لبنان: ج٩ صـ٥٠٧.

الرأي هو ثمرة حبس دلالة «**قرأ**» في كونها إحالة المسطور في كتاب إلى صورةٍ سمعيَّةٍ، وهو المعنى الذى بيَّنا ضعفه آنفًا.

أمَّا ابن حبنَّكة –رَحِمَه الله– فقد سلك طريقًا آخر، إذ ذهب إلى أنَّ الخطاب للنبي –ﷺ– والمراد أُمَّته، فقال: «دلَّ الخطاب بالأمر بالقراءة على أنَّ المقصود هو أنَّ أُمَّة هذا النبيِّ الأُمِّيِّ مطالبةٌ بأنْ تتعلَّم القراءة والكتابة، وتتخلَّص من الأميَّة، وتبدأ مسيرتها العلميَّة، مترقية في كلِّ المجالات والعلوم، فالقراءة والكتابة من أعظم وسائل الترقي في قضايا الدِّين والدنيا»(١).

ويبدو أنَّ الشيخ -رَحِمَه الله- قد اختار هذا المعنى أيضًا بناءً على تحديده مفهوم القراءة في الآية، وأنَّه هو متابعة النطق بكلامٍ مكتوبٍ على وفق الخطِّ الذى رسم به هذا الكلام، وأيَّد كلامه بما رواهُ ابنُ حَجرٍ أنَّه ورد عن ابن إِسْحَاقَ مُرْسَلًا، عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ، قَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، أي: لا أعرف ما هو مكتوبٌ، إذ لم أتعلَّمها، ولو كان المراد تلاوة ما يمليه عليه جبريل من قولٍ، لكان المناسب أن يقول الرسول له: ماذا أقرأ؟، لا أن يقول: ما أنا بقارئٍ، وما جاء في الحديث الصحيح من تكرار قوله: «ما أنا بقارئٍ» إنَّما هو تأكيد لبيان واقع حاله أنَّه لم يتعلَّم قراءة الخطوط التي هي رموز كلمات تنطق(٢).

وفي النفس شيءٌ من كلام الشيخ -رَحِمَه الله-؛ فهذه أوَّل كلمةٍ ينزل بها الوحي على قلب النبيِّ -ﷺ- وخطاب الأمَّة وإنذارها لم يبدأ بعد، وإن كان خطاب الأمَّة يأتي تبعًا لخطاب النبيِّ –ﷺ- ما لم يَرِد دليلٌ بتخصيص الخطاب به -ﷺ-، ثمَّ إنَّ دلالة القراءة لا تنحصر فيما ذهب إليه ابن حبنَّكة، فمعناها المحوري: هو الجمع والضمُّ، ومن معانيها: التفقُّه، والتنسُّك، وما ذكره الشيخ في تحديد دلالة القراءة يدخل في المعنى المحوري لمادَّة «قرأ».

ولذلك لا نميل إلى حصر معنى الأمر في كونه تكوينيًّا خاصًّا بالنبي -ﷺ- فحسب، ولا في كونه تكليفيًّا قد حبست دلالته في المعنى الذي ذكره ابن حبنَّكة لمفهوم القراءة، وأنَّها متابعة النطق بكلامٍ مكتوبٍ على وَفْق الخطِّ الذي رُسِمَ في هذا الكلام.

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر للشيخ/ عبد الرحمن حسن حبنَّكة، ط. دار القلم- دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه= ٢٠٠٠م: ج١ صـ٣٦.
(٢) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٣٦.

فقوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وإن كان خطابًا للنبيِّ -ﷺ-، فهو كذلك خطابٌ لكلِّ مَنْ يتأتَّى خطابه، وهو كقوله في آخر السورة: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩]، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾ [الضحى: ٩]، وهذا متناول لجميع الأمَّة، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمّل: ١، ٢] فإنَّه كان خطابًا للمؤمنين كلِّهم(١).

ولا مانِعَ من أن يجمع الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بين دلالتَي: التكوين، والتكليف باعتبار المخاطب فهو في حقِّ رسول الله -ﷺ- تكوينيٌّ باعتباره معجزة تتخطَّى الأخذ بأسباب التعلُّم، وهو تكوين يؤهِّل للتكليف بأعباء الرسالة ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمّل: ٥]، وهو في حقِّ غيره من المخاطبين تكليفيٌّ، مقرونٌ بالأخذ بأسباب التعلُّم.

فالمعنى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أي: كن قارئًا يا محمد؛ لأنَّ النبيَّ -ﷺ- لم يكن قارئًا، ولا كاتبًا، فالأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ يقرّر إيجاد القراءة فيه، وهو إيجادٌ بقدرة الله وإرادته، وسياق الآيات يُوحِي بذلك، فكما أوجد الله -ﷻ- هذه المخلوقات، أوجد فيك القراءة بعد أن لم تكن، وكذلك هو تكليفٌ للنبيِّ -ﷺ- وأمَّته بالقراءة، وأن تكون باسم الله الذي خلق(٢).

وقد تكون صورة الأمر واحدةً، لكن معناها يختلف باختلاف المخاطب، فإذا قال الله لنبيِّه: «اتَّقِ الله»، فالمعنى: اثبت وداوم على التقوى؛ لأنَّه سيِّد المتقين، لكن المعنى مع الأمَّة يختلف؛ لأنَّ فيهم التقي، وغير التقي، والتقوى ذاتها منازل ودرجاتٌ.

وإذا قال الله لنبيِّه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فإنَّ معناها يختلف مع أمَّته؛ لأنَّ القراءة تتحقَّق بمعرفة الكتابة؛ فإذا كانت الأميَّة فضيلة خاصَّة بالرسول -ﷺ-؛ لأنَّها إحدى عناصر معجزاته، فليست فضيلة

(١) التفسير الكبير، للإمام ابن تيمية، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت: ج٣ صـ٣٢٣.

(٢) سورة العَلَق قراءة بلاغيَّة، أحمد فتحي رمضان، مجلة آداب الرافدين- العراق، عدد (٦٨) لسنة ٢٠١٣م: صـ١٠٠.

لأحدٍ من أمَّته من بعده، بل هي نقيصة؛ إذ أمَّته مأمورة بالقراءة للكلام المكتوب، ومأمورة بتعظيم الكتابة في أوَّل ما نزل من القرآن على رسول الله - ﷺ -(١).

ومن العجيب أن يستهلَّ الوحي نوره بالأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأن يخاطب به النبيَّ الأميَّ ابتداءً؛ ففي القرآن آلاف الأوامر والنواهي، فحين يصطفي الله من بين سائر أوامره ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ليبدأ بها نور الوحي، فلا بُدَّ أن تستشرف النفس إلى أسرار ذلك ودلالاته.

وقد دارت كلمة أهل العلم على أنَّ البدء بهذا الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ هو للاهتمام بأمر القراءة، والتنويه بشأنها؛ لأنَّ صحيح العلم هو مدخل الإيمان الصحيح، فالإيمان أساسه العلم، ومفتاح العلم القراءة، وكلُّ بناءٍ لا يقوم على علمٍ هو على شفا جُرُفٍ هَارٍ، وهكذا كلُّ عملٍ، وكلُّ دعوةٍ لا تقوم على علمٍ، فهي خداج، وضررها أكبر من نفعها.

ومن ثمَّ كان البدء بالأمر بالقراءة منطقيًّا يناسب الفطرة السويَّة؛ لأنَّها أعظم مفاتح العلم الذي يُبْنَى عليه عمل العبد كلُّه في عقيدته، وعبادته، وأخلاقه، ومعاملاته، كما تُبْنَى عليه دعائم الإسلام وركائزه، وأصوله، وفروعه، **يقول الدكتور/ زكي نجيب محمود**: «ماذا تكون الدلالة الحقيقيَّة لكون الأمر بكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أوَّل ما نزل به الوحي بالقرآن على نبيِّ الإسلام؟ ماذا تكون الدلالة في تلك الأسبقيَّة إذا لم تكن حثًّا على أن يكون العلم هو الركيزة الصلبة التي تُقَام عليها أركان الإسلام؟»(٢).

وفي البدء بالقراءة لفت من طرفٍ خفيٍّ إلى أنَّ القراءة في مقدِّمة النِّعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وفي مقدمة ما يجب على الإنسان أن يشكر الله عليه، ويسعى في اكتسابه(٣).

(١) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٣٦.
(٢) رؤية إسلاميَّة، د/ زكي نجيب محمود، ط. دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م: صـ٦.
(٣) انظر التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ط. دار إحياء الكتب العربيَّة، ١٣٨١هـ= ١٩٦٢م: ج١ صـ٢٣.

وإذا كانت البداية بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ للتنويه بشأن العلم مدخلًا لصحيح الإيمان، وركيزةً تُقَام عليها أركان الدِّين، فلِمَ لَمْ يبدأ الوحي بـ«اعْلَمْ»، أو «تَعَلَّمْ بِاسْمِ رَبِّكَ»؟

لعلَّ ذلك –والله أعلم– لأنَّ القراءة أعظم مفاتح العلم؛ فالعلم ثمرة أسباب، أهمّها: القراءة، فكيف نطلب الثمرة بغير غرسٍ؟ وكيف يُفْتَحُ الباب دون مفتاح؟

ففطرة الإنسان التي لا تكلُّف فيها ولا تصَنُّع أن يكون على معرفةٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإذا لم يشبع من فطرته تلك حاجتها إلى المعرفة، تأزَّمت نفسه لذلك النقص الذي يحدُّ من إنسانيَّته، بل يحدُّ من قدرته على الحياة، ولكن ما وسيلته إلى تلك المعرفة التي هي من حياته بمثابة القلب والصميم؟ وسيلته هي أن يقرأ، ومن هنا كان أوَّل الوحي هو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[1].

ثمَّ إنَّ هذه هي أوَّل كلمةٍ نزلت من القرآن، وكلُّ ما نزل القرآن لأجله من الفهم، والتدبُّر، والعلم، والعمل مدخله القراءة باسم ربِّك، فلا فهم، ولا تدبُّر، ولا علم، ولا عمل، بدون قراءةٍ؛ ولذا كان البدء بالقراءة أولى، كما لا يخفى التناسب بين الفعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وبين أعظم ما يُقْرَأ وهو «القرآن».

كما إنَّ أمر النبيِّ الأميِّ بالقراءة أوضح دلالة في باب الإعجاز من أمره بالعلم؛ لأنَّ العلم قد يتحقَّق بغير القراءة، وفى هذا دليلٌ دامغٌ على صدق نبيِّنا -ﷺ- في رسالته، فكيف يؤمر الأميُّ بالقراءة إن كان القرآن من قول البشر؟ أمَّا أن يصير الأميُّ قارئًا مُعلِّمًا، فهذا من أدلَّة صدقه، وصدق معجزته –ﷺ–.

كذلك كان البدء بـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ حتَّى يكون السالك إلى الله على علمٍ، وعلى بيِّنةٍ، ووضوحٍ، غير مقلِّد، أو جاهلٍ مطموسٍ على قلبه، وبصيرته؛ ولذا تواطأت الأمم إلى اليوم أن تكون القراءة وتعليم أبنائها بداية ما يشغلها وتقوم به[2].

والقراءة كذلك تفرض التفاعل بين الإنسان والنص الذي يتلوه أكثر من مجرد الاستماع إليه، ولعلَّ ذلك من أسرار تسمية الكتاب الكريم قرآنًا.

---

(١) رؤية إسلاميَّة، د/ زكي نجيب محمود: صـ٢٩.

(٢) نظرات في سورة العَلَق، د/ أحمد كافي، مجلة الفرقان- المغرب، عدد (٤٧)، لسنة ٢٠٠٢م: صـ٦٣.

ثمَّ إنَّك تجد تناسبًا رائعًا بين ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ التى كانت أوَّل خطوة على الصراط المستقيم، وبين ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ التي تكون في الآخرة في جنَّات النعيم المقيم؛ فهي تُقَال أيضًا لقارئ القرآن: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا، فمَنْ قرأ في الدنيا باسم ربِّه، وعلى منهجه، قرأ وارتقى في دار كرامته، ومستقرّ رحمته، التي وعدها الرحمن عباده بالغيب.

وقد لفت ابن تيمية –رَحِمَه الله– إلى أنَّ البدء بالقراءة يدلُّ على أنَّ النظر ليس أوَّل واجبٍ، بل أوَّل ما أوجب الله على نبيِّه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ لم يقل: انظر واستدلّ حتَّى تعرف الخالق، وكذلك هو أوَّل ما بلغ هذه السورة، فكان المبلّغون مخاطبين بهذه الآية قبل كلِّ شيءٍ، ولم يُؤْمَروا فيها بالنظر، والاستدلال(١).

وفى النفس شيءٌ من كلام شيخ الإسلام –رَحِمَه الله–، فإنَّ دلالة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في أصل اللغة، وفي الاستعمال القرآني تتَّسع لمعنى النظر والاستدلال، فإنَّ معناها: الجمع والضمُّ، وكذلك التفقُّه والتنسُّك، والتفقُّه: استيعاب المعنى في القلب، وهذا بحاجة إلى نظرٍ، وتدبُّرٍ، ثمَّ إنَّ السياق القريب للآية جمع كتاب الوحي وكتاب الكون: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: ١- ٢]؛ ولذلك فإنَّ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ يشير إلى وجوب القراءة، والفَهْم، والتدبُّر في صفحات الكون؛ لمعرفة قدرة الله، وعظمته، ووحدانيَّته، وفى آيات الذِّكْر الحكيم التي أُحْكِمَتْ ثمَّ فُصِّلَتْ من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ، ليكون منهجًا يقيم حركة الكون على مراد الله.

ومن اللافت أن تكون بداية الوحي بفعل أمر: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وليس بنهيٍ، أو نفيٍ، وأن يكون الأمر معرفيًّا: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ويضمّ إليه «العلم»، و«القلم»، فتلك المفردات التي ضمَّها المطلع كانت مفتاح باب النور، والأساس الذى بُنِيَتْ عليه حضارة الإسلام، التي سادت الدنيا وعمَّرتها بمنهج الله.

ثمَّ إنَّ مجيء الأمر بصيغة المفرد ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ ليستشعر كلُّ أحدٍ أنَّه المقصود بالخطاب، وأنَّ الأمر موجَّهٌ إليه، فالخطاب موجَّهٌ للرَّجُل والمرأة، والصغير

(١) التفسير الكبير، للإمام ابن تيمية: ج٧ صـ٣٢٦.

والكبير، والإنس والجنِّ، وكلّ مَنْ يتأتَّى منه فعل القراءة؛ ولِيَعْلَمَ أنَّ عدم معرفة القراءة والكتابة إن كانت مزيةً في حقِّ المصطفى -ﷺ- وحده، فهي في حقِّ غيره معرَّة تزري بمكانة صاحبها.

وقد جاءت كاف الخطاب بالإفراد -أيضًا- في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ تناسبا مع ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ لأنَّ الإنسان يسارع -غالبًا- في إجابة مربِّيه إذا استشعر أنَّه يخاطبه هو، ويربِّيه وحده، وفي التعبير بالإفراد أيضًا ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإصلاح يبدأ بالفرد ليصِلَ إلى الجماعة، ويبدأ بالأفكار قبل الأعمال، وباب الأفكار هو القراءة بمفهومها الشامل دلالةً وميدانًا.

ونلحظ أنَّه لم يُذْكَرْ للفعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مفعولٌ، ويبدو أنَّ أمِّيَّة النبيِّ -ﷺ- وحصر مفهوم القراءة في كونها من كتابٍ؛ كانا سببًا في أن ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الأمر في الآية تكوينيٌّ، فمعنى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ عندهم: كُنْ قارئًا بقدرة الله الذي خلقك، وإرادته بعد أنْ لَمْ تكن كذلك، وإنْ لَمْ تكن كاتبًا.

والقول بأنَّ الأمر تكوينيٌّ يجعل الخطاب خاصًّا بالنبيِّ -ﷺ- وحده، هو أمرٌ لا دليل عليه، وكذلك حصر مفهوم القراءة في كونه من مكتوبٍ لا يسلم لهم؛ فالقراءة قد تكون من مكتوبٍ، أو من مسموعٍ، وكذلك فأصل معناها: الجمع والضمُّ، والتفقُّه والتنسُّك، «وقد قال الله عن نبيِّه -ﷺ- ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ [البيِّنة: ٢]، ولم يكن النبيُّ -ﷺ- يومًا يتلو القرآن من صحيفةٍ، فإذن ليس معنى تلاوة المكتوب: أخذه من الكتاب بالمطالعة، بل الأخذ بالسَّماع والتَّلقين لشيءٍ هو مدوَّنٌ ومسجَّلٌ في كتابٍ مرقومٍ»[1].

ومنهم مَنْ قدَّر لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مفعولًا يلائم معناها، الذى حصره في كونه من مكتوبٍ، فقال: «والسُّؤال: ماذا يقرأ وهو لا يقرأ؟ أقول: يُفْهَم من السِّياق، أنَّ المراد بالقراءة قراءة المخلوقات بالتفكُّر والتأمُّل، فيكون المعنى -والله أعلم-: اقرأ هذا الكون، وهذا الإنسان باسم الله -ﷻ-، ملاحظًا أنَّه الخالق»[2].

(١) المختار من كنوز السُّنة شرح أربعين حديثًا في أصول الدِّين، د/ محمد عبد الله دراز، ط. دار القلم- الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م: صـ٢١.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوَّى، ط. دار السَّلام، الطبعة السادسة، ٢٠٠٣م: ج١١ صـ٦٦٠١.

ويبدو أنَّ حصر مفهوم القراءة في كونها من مكتوبٍ هو الذي ألجأ صاحب الأساس في التفسير إلى ما ذهب إليه، وهو محلُّ نظرٍ؛ لأنَّ دلالة القراءة أوسعُ وأعمُّ من ذلك، وحصر دائرة المقروء في كونه قراءة المخلوقات أمرٌ يحتاج إلى دليلٍ، وخاصَّةً أنَّ دلالة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تَسَعُ الكون المنظور، والكتاب المسطور.

ومن المفسِّرين مَنْ جعل: «القرآن» مفعولًا مقدَّرًا للفعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ومن هؤلاء الإمام الرازي –رَحِمَه الله– حيث قال: «﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أَيِ: اقْرَأ الْقُرْآنَ، إِذِ الْقِرَاءَةُ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيهِ»(١).

وحذا الإمام البقاعي حذوه، فقال: «أشار إلى أنَّه لا قراءة إلا بما أمره به، وهو الجمع الأعظم، فالمعنى: أوجد القراءة لما لا مقروء غيره، وهو القرآن»(٢).

ولا رَيْبَ أنَّ القرآن أعظم مقروء، لكنَّ حصر دائرة القراءة فيه، وجعله وحده مفعولًا للفعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أمرٌ يحتاج إلى دليلٍ، فالأمر موجَّهٌ للنبيِّ –ﷺ–، ثمَّ للأمَّة من بعده إلى يوم الدِّين، فأين وحي السُّنَّة؟ وأين كلام الأئمَّة وأهل العلم من الصحابة والتابعين ومَنْ سار على دربهم؟ بل أين آيات الكون المنظور؟ أليس هذا كلُّه ميدانًا للقراءة، وبابًا للنظر والتدبُّر والتفقُّه، الذي هو من صميم دلالة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؟

ثمَّ إنَّ قول الإمام الرازي: -«اقْرَأ الْقُرْآنَ، إِذِ الْقِرَاءَةُ لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِيهِ»– كلامٌ فيه نظرٌ، فقد ورد الفعل «**قرأ**» وتصريفاته كثيرًا في القرآن، وقد جاء في الكتب المنزَّلة عمومًا، كما جاء في كتاب الحساب الخاصِّ بالعبد يوم القيامة، ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٤]، فأين دليل الحصر والتقييد الذي يقضي بأنَّ المقصود هو قراءة القرآن فقط؟

ولذا أميل إلى أن يتبوَّأ الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ بُعْدَه الدلالي، الذي يسع آيات الله مسطورةً ومنظورةً، ويسع قراءة كلِّ نافعٍ؛ لأنَّ الأمر موجَّهٌ للنبي ابتداءً، وللأمَّة كلِّها من بعده انتهاءً، ودلالة الأمر تتَّسع لهذا كلِّه، «تتَّسع لقراءة الوحي

(١) التفسير الكبير، للإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٤.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدِّين البقاعي، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧ه= ٢٠٠٦م: ج٨ صـ٤٧٩.

الذى سيتتابع نزوله حتَّى يعمَّ نزوله قرآنًا مجيدًا مكتوبًا مفصَّل الآيات، محكمًا، مترابطًا، متماسكًا، متناسبًا. يتلوه النبيُّ على الناس، ويبيّنه لهم؛ ليتعلَّموا منه، ويتَّسع لقراءة الكون، والنظر في الخلق، ومعرفة ما دوَّنته البشريَّة من فَهْمٍ له، وتجارب فيه بأقلامها»(١).

وما أروع ما ذكره العلَّامة الشيخ محمد الصادق عرجون بيانًا لسرِّ حذف مفعول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، إذ قال -رَحِمَه الله-: «بدأت رسالة محمَّدٍ -ﷺ- بأوَّل وأعظم عنوان للعلم والمعرفة كتبه القدير الحكيم على أبرز لوحات التَّاريخ، يوم أن قالت السَّماء لنموذج الرسالات الإلهيَّة الأعلى محمَّدٍ -ﷺ-: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، هكذا مطلقة بصيغة الأمر المطلق، الذى لا يتقيَّد بمقروءٍ معيَّنٍ من علوم البشر، ومعارفهم، وفنونهم، وأفكارهم، ولا يتقيَّد بقراءة كتابٍ مقروءٍ، أو كتابٍ مكتوبٍ بما عرف الناس من طرائق الكتابة، وأساليب تفيد العلم والمعارف الإنسانيَّة، ولا تتقيَّد بزمنٍ تقع فيه القراءة، ولا تتقيَّد بمكانٍ معيَّنٍ تجري القراءة بين جنباته، فهذا الطلب المطلق بهذه الصيغة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ على ما احتفَّ به من أهوال مفاجأة الوحي، وجوّها صريح في تسجيل العنوان الأوَّل لرسالة محمَّدٍ في لوحة الحياة بأخصِّ خصائص خلودها، وشمولها شمولًا كاملًا، فلا يفوته جيلٌ من الناس، ولا زمنٌ من الأزمان، ولا مكانٌ من الأمكنة، ولا يندُّ عنه علمٌ من العلوم، التي عرفها البشر في منحدرات التطوُّر الإنساني، أو التي سيفتح إلى معرفتها سبيل لا عهد للعقل الإنساني بها فيما مضى من السنين والأحقاب، ولا تذهب عنه معرفةٌ من المعارف، التي كانت في ماضي الحياة، أو التي ستكون في مستقبلها»(٢).

فهذا كلُّه من عطاء حذف مفعول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وجاء اتّساع العطاء تبعًا لاتِّساع دلالة «**قرأ**» في لغة العرب، وفى كلام ربّنا سبحانه وتعالى.

لكن من القراءة ما يضلُّ ويفسد ويهدم، ومثل هذه القراءة تخرج عن دائرة مفعول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ ولذا جاء سبحانه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ضبطًا لحركة القراءة، وتحديدًا لمسارها؛ ليصحب العبد القاعدة من المسير إلى المصير ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ

(١) الجمع بين القراءتين الوحي والكون، طه جابر العلواني، ط. دار الشروق، ٢٠٠٠م: صـ١٣.

(٢) محمدٌ رسول الله منهج ورسالة، للعلَّامة محمد الصادق عرجون، ط. دار القلم بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م: ج١ صـ٢٤١.

﴿رَبِّكَ﴾، فلا بُدَّ أن تكون القراءة باسم الله، فلا نقرأ ما لا يرضاه، إنَّما القراءة باسم الله، وعلى منهجه لنفع الأرض والخلق بخيري الدنيا والآخرة.

يتجلَّى هذا المعنى حين ترى العلماء يقولون: إنَّ ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلقٌ بمحذوفٍ في محلِّ نصب حال من فاعل ﴿ٱقْرَأْ﴾، والمعنى: اقرأ مفتتحًا باسم ربِّك، أو مصاحبًا قراءتك اسم ربِّك، والمصاحبة مصاحبة الفَهْم والملاحظة لجلاله، أو: اقرأ مستعينًا بربِّك المحسن إليك(١).

فمعنى الافتتاح، والمصاحبة، والاستعانة بالله في القراءة كلّه يدلُّ على أنَّ القراءة بمفهومها الشامل للكلمات المسطورة والمنظورة محكومة بما يُرْضِي الله تعالى.

وتعدية الفعل بباء الاستعانة تدلُّ على أنَّ فَهْم الوحي الإلهي وما يتفرَّع عنه من علومٍ، لا بُدَّ أن يصحبه من الاستعانة بالله، والافتقار إليه، والتوكل عليه، والتنصُّل من الحول الذاتي إلى حَوْل الله وقوَّته ما على مثله تتحقَّق معيَّة الله، وعنايته، وفتحه على سالك سبيل العِلْم، والفَهْم.

وقيل: إنَّ الباء بمعنى «اللام»، والمعنى: اجعل هذا الفعل لله، أي: اجعله لأجله(٢).

وقيل: هي بمعنى: «على»، أي: اقرأ على اسم ربِّك، وهذا -في نظري- بعيدٌ؛ لأنَّ سياق نزول الآيات يدلُّ على أنَّ النبيَّ -ﷺ- ينفي عن نفسه القراءة، ويؤكِّد مرَّاتٍ أنَّه لا يستطيع: «ما أنا بقارئٍ»، فجاءت الآيات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾... الآيات، في إشارةٍ إلى أنَّ المعنى أنَّك لا تفعل ذلك بحَوْلك وقوَّتك، وإنَّما بقدرة الله -تعالى- وحَوْله، فاستعن به؛ فالذي خلق هذه المخلوقات بقدرته قادرٌ على أن يعلِّمَك القراءة، وإن لَمْ يكن لك بها سابق عهدٍ.

وكون الباء للاستعانة أمسّ رحمًا بالمعنى، وممَّا يُسْتأنس به في ذلك أنَّ كلمة «اسم» لم تأتِ مسبوقةً بالباء ومتلوَّة بـ﴿رَبِّكَ﴾ إلا بإثبات الألف، كقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقعة: ٧٤] أما في البسملة فلَمْ تأتِ

(١) الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام الزمخشري، ط. دار الريَّان للتراث، ١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م: ج٤ صـ٧٧٥.
(٢) التفسير الكبير، للإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ٢٧.

إلا محذوفة الألف، فحَذْف الألف من البسملة جعله بعض العلماء مُستَنَدًا يوجِّه به دلالة الباء في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فقال: ذكر أهل اللغة أنَّ الباء تأتي للدلالة على الاستعانة، وتأتي -كذلك- للدلالة على معنى الإلصاق، أمَّا الاستعانة فمثالها: «كتبْتُ بالقلم»، والذى يوجب هذه الدلالة أنَّني لا أملك في جسدي أداةً تقوم مقام القلم؛ ولذا وجب عليَّ الاستعانة بالقلم، أمَّا دلالة الإلصاق فمثالها: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، فالذي تُنْبته الشجرة لا ينفكُّ عنها؛ ولذلك كانت الباء -هنا- للإلصاق؛ ولذلك قالوا: إنَّ الباء في البسملة للإلصاق استنادًا إلى أنَّ حذف الألف يجعلها أقرب إلى السِّين، وهو قُرْبٌ يتماشى مع معنى الإلصاق، أمَّا كلمة ﴿بِٱسۡمِ﴾ فقد جاءت فيها الألف فاصلةً بين الباء والسِّين؛ ولذلك كان المعنى الأليق بها أن تكون للاستعانة(١).

وذهب بعض المفسِّرين إلى زيادة الباء، وأنَّ المعنى: اقرأ اسمَ ربِّك، وعلى رأس هؤلاء أبو عبيدة في كتابه «مجاز القرآن»، حيث قال: اقرأ باسم ربِّك مجازه: اقرأ اسمَ ربِّك(٢).

وقد نقل الرازي -رَحِمَه الله- هذا القول وضعَّفه من وجوهٍ، منها:

١- أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعْنَاهُ: «اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ» مَا حَسُنَ مِنْهُ -ﷺ- أَنْ يَقُولَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، أَيْ: لَا أَذْكُرُ اسْمَ رَبِّي.
٢- أَنَّ هَذَا لَا يَلِيقُ بِالرَّسُولِ -ﷺ-؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ شُغْلٌ سِوَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَكَيْفَ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَشْتَغِلَ بِمَا كَانَ مَشْغُولًا بِهِ أَبَدًا؟
٣- أَنَّ فِيهِ تَضْيِيعًا لِمَعْنَى الْبَاءِ(٣).

وقد يكون وراء الحُكْم على بعض كلمات القرآن بالزيادة ما وجده بعض العلماء في القرآن ذاته من مقاماتٍ، وآياتٍ متشابهةٍ، تُذْكَر الكلمة في موضعٍ، وتُحْذف في نظيره، فيقول بزيادة المذكور بدلالة حذفه في مقامٍ مشابهٍ، ومن ذلك: ما ورد في ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] مع قوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: ٧٤]، حيث جاءت الباء في آيةٍ،

(١) الإعجاز البياني في القرآن الكريم في سورة العَلَق، د/ محمد مبارك المزيودي: صـ٧.
(٢) مجاز القرآن، لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي: ج٢ صـ٣٠٤.
(٣) تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٤.

وحُذِفت في أخرى، وهو ما جعل بعض المفسِّرين يقول: إنَّ دخولها وخروجها سواءٌ، وإنَّها زائدةٌ للتأكيد(١).

والواقع أنَّ قياس آيةٍ على أخرى لا يجوز؛ لأنَّ التشابه في المواضع القرآنيَّة لا يعني اتِّحادَ المعنى والغرض المَسُوق له الكلام، فلكلِّ مقامٍ أحوالُه التي لا يناسبها غيره، ولكلِّ غرضٍ طريقه الخاصّ الذى يؤدّى به، ونظرة واحدة فيما كتبه علماء متشابه النظم القرآني تكشِف لك نبعًا دافقًا بألوان الدقَّة، والتناسب، والإعجاز، الذي يكون بتغيّر حرفٍ، أو كلمةٍ واحدةٍ في المواضع المتشابهة، وفرقٌ جِدُّ عميقٍ بَيْن «اقْرَأ اسْمَ رَبِّكَ»، أي: اذكره، وبين «اقرأ مفتتحًا ومستعينًا باسمه في قراءتك»، فالثاني أقربُ وأَدلُّ على الغرض الذى سيق له الكلام.

والمراد بالاسم في الآية: الصِّفات العُلَى، فحين نقول: باسم الله، أو باسم الرَّبِّ، فالمقصود مجموع صفات الله تعالى، أو مجموع صفات الرَّبِّ الحُسنى الدالَّة عليه، فالمعنى: اقرأ مستعينًا بما لربِّك من صفاتٍ حُسْنى، ومستصحبًا التفكُّر بأسماء الله الحُسْنى الملائمة للموضوع الذى تقرأ فيه، فما من موضوعٍ فكريٍّ إلا له صلة باسمٍ، أو أكثر من أسماء الله الحُسْنى؛ إذ ما من شيءٍ في الكون إلا وهو أثرٌ من آثار اسم الله، فاقرأ -إذن- باسم ربِّك الذي خلقك وخلق كلَّ شيءٍ حولك(٢).

أمَّا ذِكْر «الاسم» في الآية ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ فلأنَّ الاسم دالٌّ على ما تُعْرَف به الذات، ومجيء الفعل: ﴿ٱقْرَأْ﴾ قبله يشير إلى أنَّ القراءة مفتاحٌ معرفيٌّ للاسم، والاسم هو الذي يقود إلى معرفة الله، وبذلك تتحقَّق في الآية بلاغةٌ عظيمةٌ تشير إلى معرفة الله، ومعرفة الله هي الأساس الذي يُبْنَى عليه الدِّين بكلِّ تفصيلاته، كما تشير إلى أنَّ معرفة الله عن طريق أسمائه سبحانه، وخلقه الذي خلق(٣).

ثمَّ إنَّ البدء في هذا الأمر العظيم ﴿ٱقْرَأْ﴾ مستعينًا بالله، ومستصحبًا مدده، يفتح للعبد أبوابًا ربَّانيَّةً، وإلهاماتٍ، ولطائِفَ، لا ينالها إلَّا أقوام هداهم الله إليها، ودلَّهم عليها؛ لأنَّ كلَّ عملٍ لا نبدأ فيه باسم الله هو أبترٌ من الخير والفضل، ولا

(١) يُرَاجَع: التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: ج٥١ صـ٤٣٦، وأضواء البيان، للإمام الشنقيطي: ج٦ صـ٨٨.
(٢) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٥٠.
(٣) انظر: سورة العلق قراءة بلاغيَّة، أحمد فتحي رمضان: صـ١٠١.

يُرْجَى من ورائه نفعٌ؛ ولذا حرَّم الله علينا أن نأكل ممَّا لم يُذْكَر اسم الله عليه، وأوجب ذِكْر اسمه عند النحر، وقبل هذه التشريعات كلِّها جاءت الآية الأولى من الوحي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾.

وقد قال سبحانه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ولا يخفى ما في التوسُّل باسم الرَّبِّ من التوفيق، والإلهام، والتسديد؛ لأنَّ الربوبيَّة مصدرٌ جامعٌ لمعاني أسماء الله وصفاته، وهي حجَّة الله على عباده في إلزامهم بتأليهه.

أمَّا سرُّ اصطفاء اسم «الرَّب» دون الاسم الأعظم «الله» في الآية فيظهر عندما نقف مع دلالته، ومدى مناسبته للسِّياق، فلفظ «الرَّبّ» في الأصل مصدرٌ للفعل «ربَّ»، يقال: رَبَّ فلانٌ الولَدَ يَربُّه رَبًّا، كما يقال: رَبَّاه يُرَبِّيهِ تَرْبِيَةً، بمعنى: تَعَهَّدَهُ بعموم، معناه: التَّغذية، والتَّنمية، والإرشاد، والإصلاح، والحفظ، والرِّعاية، والتَّأديب، والتَّهذيب، والتَّعليم، ويشمل -أيضًا-: الإمداد المستمرّ بما يحتاج إليه لبقائه وسلامته، ثمَّ استعيرت كلمة «الرَّبّ» من المصدريَّة إلى اسم الفاعل، فصارت تُطْلَق كلمة «الرَّبّ» بمعنى: المُرَبِّي، فهي فَعْلٌ بمعنى: فَاعِل، ويشمل الإصلاح، والرعاية، والمالك، والسيد، كما يُطْلَق على: المدبِّر، والقيِّم، والمُنْعِم، ووصفه -سبحانه- بالرَّبِّ يشملُ كلَّ هذه المعاني، فهو المنشئ أبدًا، والمربِّي، والمُنعِمُ، والمالِك ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، والجمهور الأعظم من التركيب في القرآن هو «ربّ» بهذا المعنى(١).

و«الرَّبُّ» من أسماء الله الحسنى، وهو من أقرب الأسماء إلى العبد، ولعلَّ أقرب المعاني إلى الإنسان أنَّه المُرَبِّي، ولا يُطْلق غير مضافٍ إلا إذا توجَّه إلى الله تعالى، أمَّا إذا أضيف فإنَّه يتوجَّه إلى الله، وإلى عباده، فالله -سبحانه وتعالى- مُرَبٍّ، ومدبِّرٌ لخلقه، ونحن بالربوبيَّة في ثلاث نِعَمٍ: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهداية والرَّشاد(٢).

فالربوبيَّة عطاءٌ، وإيجادٌ، وإمدادٌ، وهدايةٌ، وإرشاد، وهذه المعاني أَلْيَق وأَوْفَق بسياق بدء الوحي، **ويظهر هذا من وجوهٍ عدَّة، منها:**

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل، مادة «ربب».
(٢) موسوعة أسماء الله الحسنى، د/ محمد راتب النابلسي، ط: دار المكتبي، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م: ج٣ صـ٢٩٣.

أ- في التعبير باسم «الرَّبّ» إيذانٌ ولفتٌ إلى معنى الرَّأفة والعناية بالمربوب، وأنَّه ربُّه يفعل ما يصلحه؛ لأنَّ الاسم يدلُّ على الخَلْق، والملكيَّة، والتَّدبير.

ب- هذه الآيات هي أوَّل ما نزل على قلب رسول الله -ﷺ- بعد ما حبّب إليه الخلاء، ففي ذِكْر الربوبيَّة تأنيسٌ لقلبه -ﷺ- وقد فزع حين رأي جبريل فاستماله؛ ليزول الفزع، فقال: هو الذي رَبَّاك فكيف يفزعك؟ فاسم «الرَّبّ» هو الذي يناسب حال النبي -ﷺ- وفزعه حين فَجَأَهُ المَلَكُ وهو في الغار، وقد طرق سمعَه لأوَّل مرَّةٍ ناقوسٌ يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهذا تكليفٌ وإشعارٌ بأنَّ النبيَّ -ﷺ- ابتدأ الآن حياةً جديدةً مبنيَّةً على التعبُّد والانقياد، والأمر والنهي، فالأمر كان كبيرًا؛ ولذا فزع النبي -ﷺ-، فلمَّا قال له: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كان هذا مُشْعِرًا باللُّطف، وأنَّه هو الذى رَبَّاك وتعهَّدك وحماك في الجاهليَّة ممَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة، وهو ربُّك الذي يتعاهدك ويحميك في إقامتك وسفرك، وحربك وسلمك، فهو تذكير بالماضي، وتطمين بالمستقبل(١).

وهذا نهج القرآن في خطاب الأنبياء في بدء رسالتهم، وفى خطاب الأولياء، فقد قال الله لموسي: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]، وقال لزكريَّا لمَّا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]، وكذلك قال لمريم على لسان المَلَك: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: ١٩]، فالربوبيَّة عطاءٌ يُغدِقُه الله على عباده فضلًا، وإحسانًا، ومعروفًا، وكرامةً.

ج- ثمَّ إنَّ التعبير بالربوبيَّة يناسب سياق الأمر بالطَّاعة؛ لأنَّ الذي يدعو إلى الطَّاعة هو تذكُّر النِّعَم، فالعبادة والطَّاعة إنَّما تستوجب بصفات الفعل، فكان ذلك أبلغ في الحثِّ على الطَّاعة(٢).

د- كذاك خطاب الربوبيَّة هو الخطاب الذي يقرُّ به المشركون، وفي هذا مراعاةٌ لمقتضى الحال؛ لأنَّ من الخطر على الدعوة وصاحبها أن يحدثَ التَّصادم مع الخَصْم من أوَّل وهلةٍ، والدعوة وليدةٌ لا تتحمَّل

(١) إشراقات قرآنيَّة، سلمان العودة، جزء عمَّ، مؤسَّسة الإسلام اليوم للنشر، الطبعة الثانية ١٤٣٣هـ= ١٩٩٤م: ج٢ صـ١١٣.

(٢) يُراجع تفسير الإمام الرازي: ج٣٢ صـ١٥، ونظم الدُّرَر، للإمام البقاعي: ج٨ صـ٤٧٩.

المواجهة، ولا ردود الأفعال الانتقاميَّة، إنَّهم يؤمنون بالرَّبِّ الذي خلق، لكنَّهم يكفرون بالإله المعبود المُطَاع وحده(١).

هـ- كما إنَّ عطاء الربوبيَّة يناسب الأمر بالقراءة؛ لأنَّ القراءة أهمُّ مفاتيح العِلْم الذي يهدي إلى الرَّبِّ -سبحانه وتعالى-؛ فالقراءة باسم ربِّك الذي خلق لها عطاؤها الذي هو من ربوبيَّة الله للعبد، هي فيضٌ ربَّانيٌّ، وغيثٌ رحمانيٌّ يتنزَّل على أرض القلب، فينبت إيمانًا وأخلاقًا، هي شمسٌ تشرق بها حياة العبد، وتجعل طريقه إلى ربِّه واضحة المعالم، لا يشوبها ظلام الشَّهوات، ولا غبش الشُّبهات؛ ولأنَّ عطاء القراءة من عطاء الربوبيَّة فلا بُدَّ أن يلتفت قلبك دائمًا إلى مصدر العلم، وهو ربُّك الذي خلق الإنسان من علقٍ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وذلك حتَّى لا تغترَّ بعِلْمك، فيكون وبالًا عليك.

هذا عن اصطفاء اسم «الرَّبِّ»، ثمَّ تأتي الإضافة إلى ضمير المخاطب -ﷺ-: ﴿رَبِّكَ﴾، وهي كذلك لكلِّ مَنْ يتأتَّى خطابه، **وعلى الوجه الأوَّل في الإضافة يقول الإمام الرازي**: «إنَّه تَارَةً يُضِيفُ ذَاتَهُ إِلَيْهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَتَارَةً يُضِيفُهُ إِلَى نَفْسِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، مثل قوله سبحانه: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، كأنَّه يقول: «هو لي وأنا له»(٢)، وإِضَافَةُ ذَاتِهِ إِلَى عَبْدِهِ أَحْسَنُ مِنْ إِضَافَةِ الْعَبْدِ لله، فالإضافة إلى ضميره –عليه الصَّلاة والسَّلام– للإشعار بتبليغه -عليه السلام- إلى الغاية القاصية من الكمالات البشريَّة بإنزال الوحي المتواتر(٣).

وفي الإضافة سرٌّ آخر يناسب عموم الخطاب، وهي: أنَّها تدلُّ على أنَّه –سبحانه- معروفٌ عند المخاطبين؛ إذ الرَّبُّ –تعالى- معروفٌ عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق، وأنَّ العبد مخلوقٌ، على الرغم من أنَّه دليلٌ يدلُّ على الخالق، لكنَّه معروفٌ في الفطرة قبل الاستدلال، ومعرفته فطريَّة مغروزة مع الفطرة بدهيَّة أوَّليَّة(٤).

---

(١) قراءة في صدر سورة العلق، أمين الدميري، مجلة البيان، عدد (٣٤٥)، جمادى الأولى= =١٤٣٧هـ= ٢٠١٦م: صـ٥٧.

(٢) تفسير الفخر الرازي: م١٥ ج٣٢ صـ١٥.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العماري، ط. دار الكتب= =العلميَّة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م: ج٦ صـ٤٤٨.

(٤) التفسير الكبير، للإمام ابن تيمية: ج٧ صـ٣٢٦.

وما ذكره ابن تيمية -رَحِمَه الله- يتحقَّق إذا جاء الخطاب بضمير الجمع «ربكم»، لكنَّ التعبير بالإفراد ﴿رَبِّكَ﴾ يتناسب مع الإفراد في الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ ليستشعِرَ كلُّ مخاطبٍ أنَّ الأمر موجَّهٌ إليه هو، وأنَّه المخاطب وحده بـ﴿رَبِّكَ﴾؛ وهذا أَدْعَى إلى امتثال الأمر، وهو يشعر كذلك بأنَّ قرار اختيار الطريق قرارٌ يتحمَّل هو تبعاته، فإذا قرأ باسم ربِّه، وعلى منهجه ينتهي به الطريق إلى أن يكون ممَّن عبدوا ربَّهم لعلَّهم يتَّقون، وهنا يكون خطاب الجمع أَوْلى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: ٢١].

كذلك يفيد التعبير بـ﴿رَبِّكَ﴾ في المسارعة إلى تقبُّل النصح، والأمر، والنَّهي، إذ تشعر أنَّه يُرَبِّيك وحدك، ويهتمُّ بأمرك وحدك، وهذا أمسُّ رحمًا بمقصود الآية، ولعلَّه لهذا قال: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: «باسم الرَّبِّ الذي خلق».

ثمَّ جاء وصف الرَّبِّ -سبحانه- بقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وهي نعتٌ لـ«رب»، وصلة الموصول لا بُدَّ أن تكون جملةً قد سبق للمخاطب علمٌ بها، فالجملة بعد ﴿ٱلَّذِي﴾ إذا أنتَ وصفْتَ بها شيئًا، فإنَّما جيءَ بها لِيَفْصل بين أن يُراد ذِكْرُ الشيءِ بجملةٍ قد عرَفها السامعُ له، وبين ألَّا يكون الأمر كذلك(١)، والغرض الأساسي من الوصف بـ﴿ٱلَّذِي﴾ هو التمييز والتعريف(٢).

إذن فوصف الرَّبِّ بـ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ هو وصفٌ بشيءٍ يعلمه المخاطب، بل هو أمرٌ أقرَّ به المشركون، والقصد بالوصف هو تخصيص الموصوف وتمييزه أكمل تمييز، وذِكْر هذا الوصف ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ يؤكِّد الغرض المَسُوق له الكلام ويقوّيه؛ إذ يشعر أنَّك حين تقرأ لا تقرأ بحَوْلك وقوَّتك، وإنَّما بمعونة ربِّك، وأنَّ الذي خلق هذا الخلق قادرٌ على أن يجعل الأميَّ قارئًا معلِّمًا يأخذ بِيَد

(١) انظر: دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: العلَّامة/ محمود شاكر، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ= ١٩٩٢م: صـ٢٠٠.

(٢) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام الرازي، تحقيق: د/ بكري شيخ أمين، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٨٥م: صـ١٦٤.

الخلق إلى الحقِّ -سبحانه وتعالى-، **يقول العلَّامة أبو السعود**: «وفيه التنبيهُ على أنَّ منْ قدرَ عَلى خلقِ الإنسانِ على ما هو عليه من الحياةِ، وما يتبعُها منَ الكمالاتِ العلميَّةِ والعمليَّةِ منْ مادَّةٍ لم تشتمَّ رائحة الحياةِ، فضلًا عن سائرِ الكمالاتِ، قادرٌ على تعليمِ القراءةِ الحيّ العالم المتكلّم»(١).

وفى الابتداء بوصف الرَّبِّ -سبحانه- بهذه الصفة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ دلالاتٌ وإشاراتٌ كثيرة منها:

أنَّ هذه أوَّل آيةٍ ينزل بها أمين الوحي معلنًا ميلاد أمَّةٍ جديدةٍ، ودعوةٍ جديدةٍ، فبدأت بصفةٍ من صفات الرَّبِّ، فيها معنى البدء بالحياة ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾(٢).

وصفة «الخلق» هي أقربُ الصِّفات إلى معنى الربوبيَّة، وأجمعها لصفات التعريف بالله؛ فلولا الخلق ما كان هناك شيءٌ آخر، وكلُّ النعم تأتي تاليةً له ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

والخالقيَّة كذلك من أعظم الأدلَّة على قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، وكَأَنَّ الْعَبْدَ يَقُولُ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّكَ رَبِّي؟ فَيَقُولُ: لِأَنَّكَ كُنْتَ بِذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ مَعْدُومًا، ثُمَّ صِرْتَ مَوْجُودًا، فَلَا بُدَّ لَكَ فِي ذَاتِكَ وَصِفَاتِكَ مِنْ خَالِقٍ، وَهَذَا الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ دَلَّ عَلَى أَنِّي رَبُّكَ وَأَنْتَ مربوبي(٣).

والخلق كذلك محسوسٌ يُدْرَكُ بالعَيْن؛ ولذا هو أعْلَقُ بالفَهْمِ، وأقْرَبُ إلى المقصودِ، وأدلُّ على الوجودِ، وعظيم القدرة، وكمال الحكمة، فكانت البداية به في أوَّل هذه الآيات، التي هي أوَّل ما نزل أنْسَب؛ لأنَّ أوَّل الواجبات معرفة الله، وهي بالنظر إلى أفعاله في غاية الوضوح؛ ولذلك كانت البداية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾.

(١) تفسير الإمام أبي السعود: ج٦ صـ٤٤٨.
(٢) التصوير الفني في القرآن، سيِّد قطب، ط. دار الشروق، الطبعة الرابعة عشرة، د. ت: صـ٥٦.
(٣) تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٥.

وفي الابتداء بهذه الصفة أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ المخلوقات هي مجالات المعرفة، التي تأخذ بيد العبد إلى معرفة ربِّه، وأنَّ البحث في الخلق هو السَّبيلُ الأقرَبُ والأقومُ لطلَّاب الحقِّ أيًّا كانوا، وفي أيِّ طريقٍ سلكوا، وبذلك ينطلق العبد من المحسوس «الخلق» إلى الإيمان، والتوحيد، ومعرفة الله، وهذا يتوافق مع الفطرة الإنسانيَّة، التي تنطلق من المحسوس إلى المُجَرَّدِ.

ثمَّ إنَّ صفة «الخلق» يسلِّم بها المشركون أنفسهم، وهو بهذا يُلْجِئُهُم إلى الإقرار به إلهًا، فالله –سبحانه- أرسل رسوله للمشركين، ولو قال: اقرأ باسم ربِّك الذي لا شريك له، لأَبَوْا أنْ يقبلوا ذلك منه، لكنَّه –تعالى- قدَّم ذلك مقدمة تُلْجِئُهُمْ إلى الاعتراف به إلهًا، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ثمَّ لمَّا صارت الألوهيَّة موقوفةً على الخالقيَّة، وحصل القطع بأنَّ مَنْ لَمْ يخلق لم يكن إلهًا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧] وصف نفسَه بما لا سبيل لهم إلى إنكاره، فإنَّهم لا يمكن أنْ ينكروا كونهم مخلوقين من عَلَقٍ، ولا أنْ ينكروا أنَّ الخلق لا بُدَّ له من خالقٍ، ولا أن يَدَّعُوا أنَّ ذلك الخالق هو الصنم؛ لِعِلْمِهِم أنَّ الصنمَ لا يخلق شيئًا، ومن المعلوم بَدَاهَةً أنَّ ما لا يخلق شيئًا لا يصلح أنْ يكون إلهًا؛ فهذا أسلوبٌ لطيفٌ في إلزام المشركين، ودعوتهم إلى التوحيد(١).

وقد لفت ابن تيمية –رَحِمَه الله– إلى لطيفةٍ في هذا الشأن، فذَكَرَ أنَّ الله -سبحانه وتعالى- يصف نفسه بـ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بالإطلاق تارةً، والتَّقييد أخرى، أو يجمع بينهما تارةً ثالثةً، وبَيَّنَ السِّرَّ في ذلك، فقال رَحِمَه الله: «قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: ٢] فَأَطْلَقَ الْخَلْقَ وَالتَّسْوِيَةَ، وَلَمْ يَخُصَّ بِذَلِكَ الْإِنْسَانَ، كَمَا أَطْلَقَ قَوْلَهُ بَعْدَه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣] لَمْ يُقَيِّدْهُ، فَكَانَ هَذَا الْمُطْلَقَ لَا يَمْنَعُ شُمُولَهُ لِشَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُقَيَّدَ بِالْإِنْسَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: ٧] وَقَدْ ذَكَرَ الْمُطْلَقَ وَالْمُقَيَّدَ فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) انظر: حاشية الشيخ زادة على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدِّين الحنفي، ضبطه: عبد الله محمود محمد، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه= ٢٠٠١م: ج٨ صـ٦٣٧.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: ١، ٢] وَفِي جَمِيعِ الْآيَاتِ قَدْ ذَكَرَ خَلْقَهُ، وَذَكَرَ هِدَايَتَهُ وَتَعْلِيمَهُ بَعْدَ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ خُلِقَتْ لِغَايَةٍ مَقْصُودَةٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إلَى هذه الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقَتْ لَهَا، فَلَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهَا وَمَا أُرِيدَتْ لَهُ إلَّا بِهِدَايَتِهَا لِغَايَاتِهَا، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ لِحِكْمَةٍ وَغَايَةٍ تَصِلُ إلَيْهَا»(١).

والخَلْقُ أصلُه: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشّيء من غير أصلٍ واحتذاءٍ، وليس الخَلْقُ الذي هو الإبداع إلّا لله تعالى؛ ولذا قال مبيّنًا ضلال مَنْ عبد غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، أمّا الخلق الذي يكون بالاستحالة، أو بمعنى التقدير، فقد جعله الله لغيره في بعض الأحوال، كما قال لعيسى -عليه السلام-: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، والخلق لا يستعمل في كافّة النّاس إلّا على وجهَيْن: الأوَّل: في معنى التّقدير، والثاني: الكذب، كقوله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ [العنكبوت: ١٧](٢).

وحمل دلالة الخلق على الإيجاد من العدم والإبداع أَوْفَق وأنْسَب للسِّياق والغرض؛ لأنَّ الآية تذكر صفةً يختصُّ بها ربُّنا، ولا يشاركه فيها أحدٌ، وهم جميعًا يسلمون بها.

ولذا ذهب بعض المفسّرين إلى تنزيل الفعل ﴿خَلَقَ﴾ منزلة الفعل اللازم، والمعنى: الذي له الخلق، هو صفته التي استأثر بها وانفرد، فلا قصد إلى المفعول أصلًا، ومِنْهم مَنْ عدَّاه إلى مفعولٍ مقدَّرٍ يفيد العموم، والمعنى: الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، فَيَتَنَاوَلُ كُلَّ مَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ، فَلَيْسَ حَمْلُهُ عَلَى الْبَعْضِ أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْبَاقِي، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ من ذِكْرِ الخاصِّ بعد العام(٣).

(١) مجموع الفتاوى، للإمام ابن تيمية، ط. دار الوفاء، الطبعة الثانية ١٤١٩ه= ١٩٩٨م: ج١٦ صـ١٢٩.
(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني، مادة «خلق».
(٣) انظر تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٦، ١٧.

ويرى بعضهم تقدير مفعولٍ خاصٍّ للفعل ﴿خَلَقَ﴾ هو ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جاء مُبْهَمًا، ثمَّ فسِّر بقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ من باب الإيضاح بعد الإبهام.

وهذا الأخير –في نظري– بعيدٌ؛ لأنَّه لا يتناسب مع سياق ابتداء الوحى بآياتٍ يتعرَّف فيها ربُّنا إلى عباده بصفاتٍ هي أعظم مظاهر الربوبيَّة، وهي صفاتٌ تميِّزه وتفرده باستحقاق العبوديَّة وحده، وخَلْق السَّماوات والأرض أكبر من خَلْق الإنسان، وجميعهم يقرُّ بأنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وتخصيص المفعول يذهب بهذه المعاني الواسعة، كما إنَّ تخصيصه بالإنسان يحتاج إلى دليلٍ لا يوجد في السِّياق.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العَلَق: ٢]

بيَّنت الآية الأولى أنَّ الله -ﷻ- انفرد بالخلق، واختصَّ به، فهو الذي خلق كلَّ شيءٍ، ثمَّ جاءت الآية التالية تتحدَّث عن خَلْق الإنسان الذي أمره الله بالقراءة، لافتة إيَّاه إلى طَوْرٍ من أطوار خلقه، وهو «العَلَق»، وكأنَّه يقول لِمَنْ كرَّر القول إنَّه ليس بقارئٍ: أيْقِنْ أنَّك قد صِرْتَ قارئًا بإذن ربِّك الذي أوْجَدَ الكائنات، وما القراءة إلَّا واحدة منها، والذي أنشأ الإنسان خلقًا كاملًا من دمٍ جامدٍ لا شكل فيه، ولا صورة، وإنَّما القراءة صفة عارضة على ذلك الإنسان الكامل، فمَنْ أَوْلَى بسهولة الإيجاد؟(١).

وإذا كان مفعول ﴿خَلَقَ﴾ في الآية الأولى عامًّا يتناول جميع المخلوقات، فإنَّ ذِكْرَ خلق الإنسان هنا هو من باب ذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ، كقوله سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]، وتكون الآية بمنزلة بدل البعض من الكُلِّ، وسلوك طريق الإبدال لما فيه من الإجمال ابتداءً، لإقامة الاستدلال على افتقار المخلوقات كلِّها إليه تعالى؛ لأنَّ المقام مقام الشُّروع في تأسيس دولة الإسلام، ففي الإجمال إحضارٌ للدَّليل مع الاختصار، مع ما فيه من إفادة التعميم، ثمَّ يكون بعد ذلك التفصيل لزيادة التقرير(٢).

(١) محاسن التأويل، للإمام القاسمي: ج٩ صـ٥٠٨.
(٢) التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: م١٥ ج٣٠ صـ٤٣٨.

وإنْ قيل: إنَّ مفعول ﴿خَلَقَ﴾ في الآية الأولى «خاصٌّ» قد أُبْهِمَ ثمَّ فُسِّرَ بقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، فإنَّ الفصل في الآيتَيْن يكون لكمال الاتِّصال أيضًا، وتكون الآية الثانية بمنزلة عطف البيان، ويكون المعنى: «اقرأ باسم ربِّك الذي خلق الإنسان من عَلَقٍ».

والوجه الأوَّل أقرب وأنسب لسياق مطلع الوحي، وسياق السورة أيضًا؛ فوصفه سبحانه بأنَّه الخالق وحده، وأنَّه خالق كلِّ شيءٍ أَوْلَى وأليق بالسِّياق من حصر دائرة المفعول في الإنسان، وهذا أمرٌ بيَّنَّاه آنفًا؛ ولذا نميل إلى جَعْل ذِكْر الإنسان من باب الخاصِّ بعد العامِّ؛ لأسرارٍ يقف البحث عندها بعد الوقوف مع دلالة ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في الآية الكريمة.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اسمُ جنسٍ يتناول جميعَ النَّاس، ولم يدخل فيه آدم في الآية؛ لأنَّ الله خَلَقَه من طينٍ، وهو لفظٌ يشمل الذَّكَرَ والأنثى على السَّواء، وهكذا تكون الدعوة القرآنيَّة شاملةً جنس الإنسان، وفي هذا من الجلال والرَّوْعة ما يعلو فوق كلِّ مستوى، وما يدلُّ على عظمة براعة استهلال القرآن الكريم والدعوة الإسلاميَّة، وبُعْد مَدَاها، وقوَّة عناصر خُلُودها(١).

وقد ورد ذكر ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في القرآن في أكثر من ستين آية، جاءت في سياق الأهليَّة لتحمل تبعات التكليف، والابتلاء بالخير والشرّ، والتعرُّض للغواية، وما يلابس ذلك من غرورٍ، وطغيانٍ، والإنسان في القرآن الكريم هو الذي اختصَّ بالعِلْم، والبيان، والجدل، كما إنَّه يتلقَّى الوصية، ويحمل الأمانة، يشهد ذلك أنَّ الإنسان ليس مجرَّد فردٍ من الإنس، أو النَّاس وإنَّما مناط الإنسانيَّة فيه معنويّ يرقى به من مجرَّد الإنسيَّة البشريَّة إلى حيث يتحمَّل تبعات التكليف، والإدراك(٢).

وعلى الرّغم من أنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرض أكبر من خَلْق الإنسان، فقد خصَّه الله بالذِّكْر من بين بقيَّة مخلوقاته، بعدما ذكره مُجملًا في مفعول ﴿خَلَقَ﴾ في الآية الأولى، وهذا الذي يقتضيه الحال؛ «فالإنسان هو المقصود الأوَّل بالتنزيل، فلا بُدَّ من تجلية الحقائق الوجوديَّة له، وأوَّلها: أنَّه خُلِقَ مِنْ عَلَقٍ»(٣).

(١) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة: ج١ صـ٢٤.
(٢) التفسير البياني للقرآن، د/ عائشة عبد الرحمن: ج٢ صـ٨٢.
(٣) الكشَّاف، للإمام الزمخشري: ج٤ صـ٧٧٥.

ثمَّ إنَّه المقصود أوَّلًا في الأمر بالقراءة، فتخصيصه تشريفٌ له، وتفخيمٌ لشأنه، وإذا كان الإنسان هو المقصود الأوَّل بالتنزيل، وبالأمر بالقراءة، فلا رَيْبَ أنَّ تخصيصه بالذِّكْر أكثرُ وَقْعًا في النَّفس، وأعمقُ تأثيرًا، وأشدُّ إيقاظًا للمشاعر الإنسانيَّة؛ إذ لا يغفل أحد عن نفسه، ونفسه هي أقرب شيءٍ إليه، ولا يخلو من أنْ يخطر له خاطر البحث عن الذي خلق، ففي ذِكْر خلق الإنسان إقامة الدليل على أنَّ الله هو الخالق من ذاتيَّة المستدل، فالدليل هو خلق الإنسان، والمستدلّ هو الإنسان نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذَّاريات: ٢١] فيستدلُّ لنفسه من نفسه على قدرة خالقه(١).

كما إنَّ خلق الإنسان أدلُّ على كمال القدرة الإلهيَّة؛ لكَوْن خَلْقِه أبدع من خَلْق غيره، فكان لذلك أدلّ على كمال الخالق، وعلى وجوب إفراده بالعبادة(٢).

﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾:

والعَلَق: جمع عَلَقَة، وهي: القطعة من الدَّم، وقيَّده بعضهم بالجامد، فإذا كان جاريًا فهو الدَّم المسفوح، والمعنى المحوري للفظ: نُشُوب أو امتساك مع ارتفاع وغلظة ما، وما عدا قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النساء: ١٢٩] فكلُّ ما في القرآن من التركيب هو: المركَّب المتحوّل من النطفة مع البويضة؛ لأنَّها تَعْلَقُ بجدار الرَّحِم، وجمعها: «عَلَق»، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ والدَّم الجامد المتماسك يُسَمَّى «علقة» أيضًا(٣).

وقد ورد ذِكْر هذه المادَّة في القرآن في خمس آياتٍ(٤)، أربع منها بصيغة المُفْرد ﴿عَلَقَةٍ﴾، ولم ترد بصيغة الجمع ﴿عَلَقٍ﴾ إلَّا في سورة العَلَق ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق: ٢].

(١) يُرَاجَع أضواء البيان، للإمام الشنقيطي: ج٦ صـ٩٠.
(٢) نظم الدُّرَر، للإمام البقاعي: ج٨ صـ٤٨٠.
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن، د/ محمد حسن جبل، مادَّة «علق».
(٤) الآيات: [الحج: ٥]، [المؤمنون: ١٤]، [غافر: ٦٧]، [القيامة: ٣٨]، [العلق: ٢]. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي: صـ٥٩٦.

وعلَّل الزمخشريّ -رَحِمَه الله- التعبير بالجمع في سورة «العلق» بأنَّ الإنسان في معنى الجمع، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ٢] لفظٌ مفردٌ معناه الجمع.

وعلى نهج الزمخشري يسير العلَّامة أبو السعود مُضِيفًا أنَّ التعبير بالجمع مراعاة للفاصلة(١)، لكنَّ مراجعة السِّياق القرآني تجعلنا نتردَّد في قبول تعليل الإمام الزمخشري -رَحِمَه الله-؛ ذلك أنَّ أكثر الآيات التي جاء فيها لفظ «العلقة» كان «الإنسان» فيها بمعنى الجمع، بل إنَّ آية سورة الحجّ قد وجّه فيها الخطاب لجميع الناس، مع التعبير بلفظ «العلقة» مفردًا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحجّ: ٥].

والفرق بين سياق سورة «العَلَق»، وسورة «الحجّ»: أنَّ الأوَّل إخبارٌ عن جنس الإنسان، أمَّا الثاني فهو خطابٌ مباشرٌ، والخطاب عادةً يتَّجه إلى الفَرْد، ويحسن أن يشعر كلُّ مخاطبٍ أنَّه المقصود دون سواه بالخطاب؛ ولهذا ناسب التعبير بلفظ المفرد، والله أعلم(٢).

ولعلَّ في إشارة البقاعي -رَحِمَه الله- إلى معنى «العَلَق» ما يضيء لنا طريقًا يهدي إلى سرِّ التعبير بالجمع في سورة العَلَق، قال البقاعي: «﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق هذا النوع من هذا الشيء، وهو دمٌ شديدُ الحُمْرة جامدٌ غليظٌ، جمع: عَلَقَة، وكذا الطِّين الذي يعلق باليد يُسَمَّى عَلَقًا، وهو مقرونٌ بخلق الآدمي من الأمرَيْن كلَيْهما، فالآية من أدلَّة الإمام الشافعي -رَحِمَه الله- على استعمال المشترك في معنيَيْه، ولعلَّه عبَّر به ليعمَّ الطِّين»(٣).

فلعلَّ سرَّ التعبير بالجمع ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾؛ ليعمَّ العلقة التي هي أصل خلق ولد آدم، والعَلَق هو: الطِّين الذي خُلِقَ منه آدم، وهو أصل خلق الإنسان ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السَّجدة: ٧].

---

(١) يُرَاجَع الكشَّاف، للزمخشري: ج٤ صـ٧٧٦، وتفسير أبي السعود: ج٦ صـ٤٤٩.
(٢) إشراقات قرآنيَّة، د/ سلمان العودة: ج٢ صـ١١٥.
(٣) نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّوَر، للإمام البقاعي: ج٨ صـ٤٨٠.

وتَسْتَشْرِفُ النَّفس إلى معرفة سرِّ اختصاص «العلق» دون غيره من أطوار الخَلْق بالذِّكْر، ولماذا لم يُذْكَر التراب، أو النطفة وكلاهما يسبق العلق؟

ولعلَّ السرَّ -والله أعلم- أنَّ خَلْقَ الإنسان من عَلَقٍ يعلمه جميعُ النَّاس، فكلُّهم يعلم أنَّ الإنسان يحدث في بطن أمِّه، وأنَّه يكون من عَلَقٍ، والمقصود بالآية بيان الدليل على الخالق تعالى، والاستدلال يكون بمقدَّمات يعلمها المستدلُّ، وخلق آدم من طينٍ إنَّما عُلِمَ بخبر الأنبياء، أو بدلائل أخرى؛ لذلك ينكره طائفةٌ من الكفَّار الدَّهريَّة، ولأن هذه الآيات أوَّل ما نزل، وبها تثبت النبوَّة، فلم يذكر فيها ما عُلِمَ بالخبر، بل ذكر فيها الدليل المعلوم بالعقل والمشاهدة، وكذلك الأمر بالنسبة للنطفة، فإنَّه لا يلزم منها خَلْق إنسانٍ؛ لأنَّها قد تسقط في غير رَحِمٍ كما يحتلم الإنسان، وقد تسقط في الرَّحِم ثمَّ يرميها الرَّحِمُ قبل أن تصير عَلَقةً، فقد صار العَلَق مبدأ خلق الإنسان(١).

ثمَّ إنَّ النطفةَ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حُكْمٌ إِذَا أَلْقَتْهَا الْمَرْأَةُ، إِذَا لَمْ تَجْتَمِعْ فِي الرَّحِمِ، فَهِيَ كَمَا لَوْ كَانَتْ فِي صُلْبِ الرَّجُلِ، **يقول الإمام القرطبي -رَحِمَه الله-:** «فَإِذَا طرحَتْ عَلَقَةً فَقَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّ النُّطْفَةَ اسْتَقَرَّتْ وَاجْتَمَعَتْ وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَوَّلِ أَحْوَالِ ما يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ وَلَدٌ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ وَضْعُ الْعَلَقَةِ وَمَا فَوْقَهَا وَضْعَ حَمْلٍ، تَبْرَأُ بِهِ الرَّحِمُ، وَتَنْقَضِي بِهِ الْعِدَّةُ»(٢).

فالعَلَقة –إذن- أوَّل اتِّحادٍ مركَّبٍ يتكوَّن منه الإنسان، فإذا اتَّحدت نطفة الرَّجُل مع بويضة المرأة أصبح هذا الاتِّحاد شيئًا جديدًا مركَّبًا اسمه «العَلَقَة»؛ لأنَّها تَعْلَقُ بجدار الرَّحِم، وتتغذَّى على الدَّم منه تمامًا كالدودة المعروفة باسم العلقة؛ ولذلك تَرَكَ القرآنُ الحديثَ عن بداية الخَلْق الأوَّل الذي هو التراب، مع أنَّه أدلُّ على كمال القدرة؛ لأنَّ الله –سبحانه- يخاطب الخَلْقَ في حدود عِلْمِهم، وهم لم يشهدوا ما خلق الله من ترابٍ، وإنَّما علموا ذلك بإخبار الحقِّ -سبحانه وتعالى- أمَّا خلق الإنسان من علقٍ فهو أمرٌ معروفٌ، ثمَّ إنَّه يمكن إخضاعه للعلم التجريبي، ويمكن الوصول فيه إلى متابعة حال النطفة حتَّى تصير عَلَقَةً(٣).

لكنَّ الدكتور المزيودي قد سَلَكَ طريقًا آخر في تحديد دلالة «العلق» بناءً على أنَّ المقصود بالإنسان في الآية هو آدم وذريَّته، فقال: الآية تتحدَّث عن

(١) انظر التفسير الكبير للإمام ابن تيمية: ج٧ صـ٢٦٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ط. دار الحديث، ١٤٢٨ه= ٢٠٠٧م: ج٦ صـ٣٣٢.
(٣) يُرَاجَع تفسير جزء عمَّ، لفضيلة الشيخ الشعراوي، ط. دار الراية ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م: صـ٤٢٩.

ظاهرة الإنسان، فالأصل هو دخول آدم، ولأنَّ آدم لم يُخْلَقْ من «علق»، فمِنَ المستبعد أن يكون «علق» جمع «علقة» بمعناها المعروف، ثمَّ ساق بعض الأدلَّة على ذلك، وانتهى إلى أنَّ الأَوْلَى تفسير العَلَق بمعنى التعلُّق، أي: هو وصفٌ ومركَّبٌ نفسيٌّ في الإنسان، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فالمعنى عنده: خُلِقَ الإنسانُ متعلِّقًا بنعيم الحياة الدنيا؛ ولذلك جاء القرآن ليردَّه إلى التعلُّق بالله والحياة الآخرة(١).

وهذا تأويلٌ بعيدٌ؛ فعلى التسليم بأنَّ المقصود بالإنسان هو آدم وذريَّته فكلمة: ﴿عَلَقٍ﴾ من معانيها أيضًا: الطِّين الذي يعلق باليد كما قال البقاعي -رَحِمَه الله-، فيدخل فيها آدم، والآيات -كما قلنا- تدليلٌ على الخالق -سبحانه وتعالى- وتنبيهٌ إلى مظهرٍ من مظاهر قدرته في إخراج إنسانٍ كاملٍ عاقلٍ قارئٍ من هذه العَلَقَة، والاستدلال إنَّما يكون بمقدِّماتٍ يعلمها المستدلُّ، وكلّهم يعلم أنَّ الإنسان يُخْلَق مِنْ عَلَقٍ.

والآية ليسَتْ في ذِكْر مراحل خَلْق الإنسان، ولا في ذِكْر صفاته النفسيَّة، وإنَّما في سياق وصف الخالق سبحانه، وبيان الدَّليل الذي هو المستدلّ ذاته، فجاء لفظ: «العَلَق» الذي هو أوَّل مركَّبٍ يتكوَّن منه الإنسان بجوار لفظ «الإنسان»؛ ليتحرَّك عقله مقارنًا بين علقة لا تكاد تُرَى بالعَيْن، وبَيْن إنسانٍ سويٍّ عاقلٍ؛ ليتذكَّر -دائمًا- أصل خلقه، فلا يتعالى، ولا يتكبَّر على الخَلْق، وليكون الخَلْق سبيلًا يهدي إلى خالقه -عزَّ وعلا-.

وإذا كانت الآية قد سيقت في وصف الله -سبحانه-، وبيان الدَّليل على ربوبيَّته وخالقيَّته، فتفسير «العَلَق» بمعنى: التعلُّق أمرٌ ينبو عن السِّياق والغرض؛ لأنَّه يكون -حينئذٍ- حديثًا عن صفةٍ نفسيَّةٍ في الإنسان، وليس حديثًا عن خلقه الذي هو دليل الربوبيَّة والخالقيَّة.

ونلحظ أنَّ الآية قد خلت من التأكيد؛ لأنَّه معنى يعرفه ويقرُّ به هؤلاء؛ ولذلك فليس المراد من الخبر مجرَّد الإخبار، وإنَّما بيان قدرته -سبحانه-، وأنَّه بلغ بالإنسان أقصى الكمال من شيءٍ لا يُذْكَر وهو «العلق».

وقد توافقت الفاصلة ﴿خَلَقَ﴾ مع ﴿عَلَقٍ﴾ وخُتِمَت بحرف القاف، وفيه قوَّةٌ تعكس قوَّة المعنى المراد في سياقٍ تعرَّف الخالق -سبحانه- إلى عباده، وهي مِنَ الفواصل المتماثلة، التي اتَّحدت حروف مقاطعها، «وهذه الفاصلة لها

(١) يُرَاجَع الإعجاز البياني في القرآن في سورة العَلَق، د/ محمد مبارك المزيودي: صـ١٥-١٨.

وَقْعُها الذي تطرب به الأُذُن، وتهشُّ لها النَّفس، فتقبل على السماع من غير أن يدخلها مللٌ، أو يخالطها فتورٌ، فيتمكَّن المعنى في القلوب، ويقرُّ في الأذهان، وهذا كلُّه رأس البلاغة، ومقصد البُلَغَاء»(١).

وبين ﴿خَلَقَ﴾ و﴿عَلَقٍ﴾ كذلك جناسٌ مضارع غير تامٍّ، وتشابه ألفاظ التجنيس تحدث كذلك بالسَّمع ميلًا إليه، وهو من أسباب تلاحم الأسلوب، وترابطه، وله وَقْعٌ ملحوظٌ يجعل الأسلوب مميزًا، وذا أثرٍ قويٍّ في النَّفس(٢).

وفي الآية إشاراتٌ لطيفةٌ، منها:

- أنَّ مَنْ كان قادرًا على أن يَخْلُقَ من الدَّم الجامد إنسانًا حيًّا ناطقًا ليسُودَ مخلوقات الأرض جميعًا، قادرٌ على أن يجعلَ محمَّدًا -ﷺ- قارئًا، وإن لم يتعلَّم القراءة والكتابة.
- تعظيم شأن النبوَّة، وارتفاع درجة النبيِّ -ﷺ- فكأنَّ ما بين مرتبة الإنسان العادي ومرتبة النبوَّة، كما بين مرتبة العَلَق والإنسان، وشتَّان ما بينهما(٣).
- قد يصيبُ الإنسانَ في كثيرٍ من الأحيان غرورٌ وإعجابٌ، ينسى معه أصله وبدايته، وتأتي كلمات الوحي الأولى تذكِّر البشر بأصلهم الذي خُلِقُوا منه، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾؛ ليبقى ذلك رادعًا له عن الغرور والتعالي.
- أنَّ ابتداء الدِّين كابتداء الإنسان، كان ضعيفًا، ثمَّ تقوَّى شيئًا فشيئًا حتَّى الكمال، فقد بدأ خلق الإنسان من عَلَقٍ، حتَّى صار قارئًا عالمًا ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥] كما بدأ الدِّين ضعيفًا حتى انتهى إلى كماله، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣](٤).

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربيَّة، د/ أحمد موسى، ط. دار الكتاب العربي، ١٣٨٨ه= ١٩٦٩م: صـ٤٩٧.
(٢) دراسات منهجيَّة في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، مطبعة الأمانة، د. ت: صـ٢٢٠.
(٣) تفسير سورة العَلَق، د/ فضل عبَّاس: صـ٤.
(٤) تفسير ابن عجيبة المسمَّى: البحر المديد، لابن عجيبة: ج٧ صـ٨٧، د. ت د. ط.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾:

ولمَّا أتمَّ -سبحانه- ما أراد من أمر الخَلْق، وهو الإيجاد بالأسباب بالتدريج، أخذ في التنبيه على عالم الأمر وهو الإبداع من غير أسبابٍ، فقال مكرِّرًا الأمر بالقراءة؛ تنبيهًا على عِظَمِ شأنها وتأنيسًا له -ﷺ- وتسكينًا لرَوْعِه، ومعلمًا أنَّ مَنْ جاء الأمر مِنْ قِبَلِه ليس كأربابهم ﴿ٱقۡرَأۡ﴾(١).

وتكرار الأمر بالقراءة تأكيدٌ لإيجابها، واهتمامٌ بشأنها، بدلالة حذف المفعول للتركيز على الفعل؛ إذ إنَّ الأمر مرَّتَيْن أبلغ في الطَّلَب من الأمر مرَّة واحدة، وهذا التَّكرار والتوكيد يؤسِّس لوجوب كونها عبادة تسلم إلى القرب الأقدس، ما دامت تسير وَفْقَ الضَّوابط التي جاءت في مطلع الوحي: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾- ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

وقد ذكر الإمام الرازي -رَحِمَه الله- أنَّ أهل العِلْم يفرِّقون بين الأمرَيْن في سياق المطلع، فقال: «قَالَ بَعْضُهُمْ: اقْرَأْ أَوَّلًا لِنَفْسِكَ، وَالثَّانِيَ لِلتَّبْلِيغِ، أَوِ الْأَوَّلَ لِلتَّعَلُّمِ مِنْ جِبْرِيلَ، وَالثَّانِيَ لِلتَّعْلِيمِ، أَوِ اقْرَأْ فِي صَلَاتِكَ، وَالثَّانِيَ خَارِجَ صَلَاتِكَ»(٢).

والواقع أنَّ هذا حبس لدلالة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ دون دليلٍ أو داعٍ يقتضي ذلك، فحَمْل السياق على ظاهره أمس رحمًا بالمعنى المقصود؛ إذ يفيد تأكيد الأمر الإلهي للمصطفى -ﷺ- ولكلِّ مَنْ يتأتَّى خطابه بالقراءة، فالتأكيد على إيجاب القراءة، والاهتمام بأمرها معنى ظاهرٌ من التَّكرار، لكن لا يمنع من التماس إشاراتٍ ودلالاتٍ أخرى وراء هذا التَّكرار.

فقد يكون التَّكرار إشعارًا بحاجة الإنسان لمتابعة القراءة في حياته؛ لتغذية فِكْره، وعقله، ونفسه بالمعارف والعلوم؛ لتبقى له حياة معنويَّة متنامية، كما إنَّ جسده بحاجةٍ إلى الطَّعام، والشَّراب، والنَّفَس؛ لاستمرار حياته إلى أجله(٣).

وفيه كذلك تأكيدٌ على أنَّ القراءة من المهارات التي لا تَكْسبها النَّفْس إلَّا بالتَّكرار والتعوُّد، فالقراءة مرَّة بعد مرَّةٍ، والمراجعة مرَّة تِلْوَ الأخرى، وترديد المحفوظ شرط في ثبوت العِلْم، وازدياد الفَهْم للمعلوم.

(١) نظم الدُّرَر، للإمام البقاعي: ج٨ صـ٤٨١.
(٢) تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٧.
(٣) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٤٨.

ويدلُّ التكرار –كذلك- على أمرَيْن يفيدهما السِّياق الذي وردت فيه الآيتان:

- **الأوَّل**: ارتباط القراءة والأمر بها بنعمة الخلق والإيجاد، وهذا مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ١، ٢].
- **الثاني**: ارتباط القراءة بنعمة الإمداد والإكرام، وهذا مستفادٌ من قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣].

فالذي خلق الإنسان يأمره بالقراءة؛ لأنَّها حقُّ الخالق؛ إذ بها يعرف، وممارسة القراءة بضوابطها المذكورة في المطلع هي صورةٌ من صور شكر الخالق؛ لأنَّها قراءة باسْمِهِ، ثمَّ إنَّ القارئ باسم الله لا يقرأ وحيدًا دون مساعدةٍ وعونٍ ربَّانيٍّ، وإنَّما يقرأ بعون الله ومَدَدِه، ويغمره –سبحانه- بفيض كرمه ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣].

ثمَّ أتبع الأمر بالقراءة بقوله سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأٌ خبره ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، والجملة في محلِّ نصب حال من فاعل ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، والمعنى: اقرأ مستيقنًا أنَّ ربَّك الأكرم، وفي الجملة قصر صفةٍ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ على الله -سبحانه وتعالى- قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا بتعريف الطَّرفَيْن، وكان مقتضى الظَّاهر أن يأتِيَ ضمير المتكلِّم، فيقول: اقرأ وأنا الأكرم، لكنَّ التعبيرَ بالاسم الظَّاهر «ربّك» فيه تقوية داعى النبيِّ -ﷺ- إلى القراءة؛ لاستشعار واستحضار معنى الربوبيَّة.

ومجيء جملة ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بعد الأمر ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ فيه إيناسٌ له –ﷺ-، كأنَّه يقولُ لَهُ: امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ ولا تَلْتَفِتْ؛ فربُّكَ لَيْسَ كهَذِهِ الأرْبَابِ، بَلْ هُوَ الأَكْرَمُ(١).

ثمَّ هي تزيل العذر الذي بيَّنه النبي -ﷺ- بقوله: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» يريد: أنَّ القراءة من شأن مَنْ يكتب ويقرأ، وأنا أُمِّيٌّ، فقيل له: وربُّك الذي أمرك بالقراءة

(١) يُرَاجَع المحرر الوجيز في لطائف الكتاب العزيز، لابن عطيَّة الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتاب- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ه= ٢٠٠١م: ج٦ صـ٤٤٩.

مبتدئًا باسْمِهِ هو الأكرم الذي علَّم بالقَلَم، فهو أكرم مِنْ كلِّ مَنْ يُرتجى منه الإعطاء، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك نِعْمَة القراءة من بحار كرمه(١).

كذلك تلمس في قوله –عزَّ وعلا-: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ وَعْدًا لِمَنْ قرأ القرآن والكون باسمه أن يكرمه الله بالإكرام العظيم؛ حيث يفتح الله له من العلوم ما لم يفتحه لغيره، فما مِنْ إنسانٍ يقرأ باسم الله، إلا ويعطيه الله – سبحانه- من العلوم دقيقها وجليلها، حتَّى يشعر المأمور بالقراءة بأنَّ ربَّه الذي يمدُّه دومًا بعطاءات الربوبيَّة يمدُّه بفيوض المعارف كلَّما ازداد من القراءة طلبًا للمعارف النافعة، وسيعطيه معارِفَ زائدةً على المعارف التي تدلُّ عليها المكتوبات يقرؤها، فالله –سبحانه- هو الأكرم من كلِّ كريمٍ، فلا يقتصر عطاؤه على حدود ما يطلب القارئ الوصول إليه من المعاني التي تدلُّ عليها الألفاظ المكتوبة، بل يزيد من كرمه العظيم فيوضًا من المعارف فوقها، على مقدار ما تستوعب آنيته الفكريَّة(٢).

كما تلفت الآية إلى أنَّه ما دام هذا العطاء من فيض كرم الأكرم، الذي قرأ العبد باسمه، فَلْيَحْذَر أن يصبحَ علمه سببًا للطُّغيان، وأداةً للظُّلم والفساد، أو التعالي على خلق الله؛ فهو محض فضل ربِّه الأكرم، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، والذي منحه هذا بكَرَمِه قادرٌ على نزعه في لمحةٍ بعَدْلِهِ، فليذكر العبد دائمًا في رحلة قراءته باسم ربِّه أنَّه سابحٌ في بَحْرِ كرمِه، مغمورٌ بفيض عطائِهِ سبحانه.

وحين يبقى العبد على ذُكر من هذا وشكر، فقد استبقى فيض كرم الأكرم سبحانه، ويكون كذلك من أكرم أهل الأرض، وأعلاهم منزلةً؛ لأنَّ مفتاح باب رقي الأمَّة وعلوّ شأنها في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ ولذا اقترنت القراءة باسم ربِّنا ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ في آيةٍ واحدةٍ، «وحين تنظر إلى العالم جغرافيًّا، أو مكانيًّا، سترى هذا الاقتران متلازمًا، أي: أنَّ الذين ينالون كرَمَ الرَّبِّ -سبحانه- هم أكثر النَّاس قراءة في العالم»(٣).

---

(١) تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي، ط. مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده، د. ت: ج٣٠ صـ١٩٩.

(٢) انظر: معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٤٨، والأساس في التفسير، لسعيد حوَّى: ج١١ صـ٦٦٠١.

(٣) اقرأ وربُّك الأكرم، جودت سعيد، ط. دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م: صـ٢٥.

هذا ولا بُدَّ أن نفرّق بين كرم الدنيا، الذي يعطى لمن يقرأ ويتعلَّم عمومًا، وبين كرم الدنيا والآخرة لمن يقرأ باسم ربِّه، وعلى منهجه؛ ليقيمَ حركة الحياة وَفْقَ مراد الله في كتابه وسُنَّة نبيِّه -ﷺ-.

وقد انفرد مطلع سورة «العَلَق» بهذا الاسم الشَّريف، إذ لم يَرِدْ في القرآن كلِّه إلَّا في هذه الآية الكريمة و﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ من الكَرَم ضدّ اللُّؤْم، والكَرَم: إفادة ما ينبغي لا لغرضٍ، فمَنْ وهب المال لجمع منفعةٍ، أو رفع ضررٍ فليس بكريمٍ، والكَرم -بفتح الكاف-: العِنَب، والقِلادةُ من الذَّهب والفضَّة، والكَرَم – محرَّكة-: أرضٌ مُثارة مُنَقّاة من الحجارة، وكَرَمُ الفرس: أي: أن يرقّ جِلْدُه، ويلين شعره، وتطيب رائحته، وقد كَرَّم السَّحابُ: جاد بمطرٍ كثُر ماؤه، ولفظ «الكَرَم» لفظٌ جامعٌ للمحاسن والمحامد، لا يُرَاد به مجرَّد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه.

والمعنى المحوري للفظ هو: رِقّة الشَّيء المتجمِّع، ونقاؤه، وصفاؤه، مع قبول النفس له، والكَرَم بالمعنى الشائع، وهو الجود، يُؤْخَذ من الأصل من حيث إنَّ الجواد سَمْح النَّفس سَهْلها، ليس كزًّا كثيفًا غليظًا، ومن حيث إنَّ الجود بذل يخفف كثافة تراكم المال عند الإنسان(١).

ومعنى اسمه الشَّريف: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أي: الذي له الكمال في زيادة كرَمه على كلِّ كريمٍ، الكثير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه الجامع لأنواع الخير، والشَّرف، والفضائل، وكلّ ما يُحْمَد، وقد انفردت به سورة «العَلَق» التي بدأت رَسْم ملامح المنهج الإسلامي، وأعلنت مولد أمَّة المصطفى -ﷺ- التي ستسود الدنيا بكرم الأكرم سبحانه، و﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ لا يقال بالإطلاق العام دون إضافةٍ إلى شيءٍ إلَّا في جانب الله -ﷻ- كالأكبر، فهو سبحانه الأكرم من كلِّ كريمٍ(٢).

وقد عدَّد المفسرون بعض وجوه أكرميَّته سبحانه، فقال الزمخشري – رَحِمَه الله-: «الْأَكْرَمُ ينعم على عباده النّعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كُفْرهم وجُحُودِهم لنعمه، ويقبل توبتهم، ويتجاوز عنهم بعد اقترافهم العظائم، فما لكرمه غايةٌ ولا حدٌّ»(٣).

(١) المعجم الاشتقاقي المؤصّل لألفاظ القرآن الكريم، د/ محمد حسن جبل، مادَّة «كرم».
(٢) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٤٨.
(٣) الكشَّاف، للإمام الزمخشري: ج٤ صـ٧٧٦.

وقال الرازي –رَحِمَه الله-: «كَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَحْلُمُ وَقْتَ الْجِنَايَةِ، لَكِنَّهُ لَا يَبْقَى إِحْسَانُهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الْجِنَايَةِ، وَهُوَ تَعَالَى أَكْرَمُ؛ لِأَنَّهُ يَزِيدُ بِإِحْسَانِهِ بَعْدَ الْجِنَايَةِ، ثُمَّ إِنَّكَ كَرِيمٌ، لَكِنَّ رَبَّكَ أَكْرَمُ، وَكَيْفَ لَا وَكُلُّ كَرِيمٍ يَنَالُ بِكَرَمِهِ نَفْعًا، إِمَّا مَدْحًا، أَوْ ثَوَابًا، أَوْ يَدْفَعُ ضَرَرًا؟ أَمَّا الله فَالْأَكْرَمُ، إِذْ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا لِمَحْضِ الْكَرَمِ»(١).

والحقيقة أنَّ الانتقال بالاسم الشَّريف إلى دائرة المفاضلة بين «كريمٍ» و«أكرم» هو تقييد لدلالة ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، وحدٌّ من بلاغته وإعجازه المتمثِّل في إطلاق الدلالة من كل قيد، فهو سبحانه الأكرم على الإطلاق، الذي له الكمال في الكرم على كلِّ وجهٍ، وحالٍ(٢).

ويبدو التناسب واضحًا بين هذا الاسم الشَّريف، وبين سياقه الذي ورد فيه من وجوهٍ عدَّةٍ، منها:

- أنَّه جاء بعد الأمر بالقراءة، وكتاب الله أعظم مقروءٍ، والحرف في تلاوته بعشر حسناتٍ، وهذا من فيض اسمه الأكرم.
- جاء الاسم الشَّريف بعد إخباره سبحانه بأنَّه الذي خلق، وأنَّه خلق الإنسان من عَلَقٍ؛ ليبيّن أنَّه ينعم على المخلوقين، ويوصِّلهم إلى الغايات المحمودة، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، فالخلق يتضمَّن الابتداء، والكرم يتضمَّن الانتهاء(٣).
- جاء اسمه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بين نعمة الخلق، ونعمة العِلْم الذي ذروة سنامه القرآن، وهما نعمتان متكاملتان، الإيجاد من العدم بالخَلْق، والإيجاد الثاني من الجهل بالعِلْم، وهذا لا يكون إلَّا من الرَّبِّ الأكرم سبحانه(٤).
- جاء اسمه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ وقال بعده: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ﴾، ومسائل العلم لا منتهى لها، كما إنَّ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ لا منتهى لعطائه، فهو لا يعطي بقدر ما يقرأ العبد، بل يُغْدِق من فيض كَرَمه فوق جهد العبد، طالما

(١) تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٧.
(٢) يُرَاجَع التفسير البياني، د/ عائشة عبد الرحمن: ج٢ صـ٢٠.
(٣) التفسير الكبير، لابن تيمية: ج٧ صـ٢٩٥.
(٤) انظر أضواء البيان، للإمام الشنقيطي: ج٦ صـ٩٠.

كانت القراءة باسمه، وعلى منهجه سبحانه، ولمَّا قال سبحانه: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾ فقد ربط أعظم مفتاحَيْن للمعرفة: «القراءة والكتابة» باسمه: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ في مطلع الوحي؛ إيذانًا بوجوب التَّلاحم بين المعارف، التي يستطيع العبد بلوغها، وبين عبوديَّته لربِّه سبحانه؛ لأنَّ هذا العِلْم كلَّه نقطةٌ من فيض كَرَمه الذي لا منتهى له.

- وبَيْن خَلْق الإنسان من عَلَق، وتعليمه ما لم يكن يعلم فجوةٌ زمانيَّةٌ طويلةٌ، تركها السِّياق دون ذِكْرٍ، أو إشارةٍ، وهنا تتجلَّى عظمة اسمه: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ في استيعاب تلك الفجوة الزمنيَّة في إيجازٍ بديعٍ، وكأنَّه سبحانه يقول: إنَّ الذي خلقك مِنْ علَقٍ هو الأكرم الذي تكرَّم عليك، وتعهَّدك، وربَّاك خَلْقًا من بعد خَلْقٍ، حتَّى صِرْتَ إنسانًا كاملًا عاقلًا، فاسمه: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ قد استوعب هذا الزمن المديد في إيجازٍ بليغٍ.
- كما تتجلَّى مناسبة اسمه: ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ للسِّياق حين تنظر إلى اسمه سبحانه ﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ في سوره الانفطار، فقد جاء بعده حديث عن الخلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦- ٨]، وهذا حديثٌ عن الهيئة والصورة، أمَّا اسم ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ سبحانه فقد جاء بعده حديثٌ عن العِلْم: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤، ٥]، وجاء قبله حديثٌ عن الخلق: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢]، فالكريم خلق، والأكرم علَّم، وكأنَّها إشارةٌ إلى أنَّ التَّعليم إيجاد أعلى من مجرَّد الإيجاد الماديّ؛ إذ لا قيمة لوجود بشرٍ سنوات على الأرض، ثمَّ يكون لجهنَّم حَطَبًا، فالذي ينجيه من ذلك هو العِلْم والقراءة، إذا كانت باسم ربِّه، وعلى منهجه؛ ولذلك حين تقرأ آية العَلَق، وعينك على آية الانفطار، تُدْرِكُ أنَّ الحياة بغير منهجٍ يقيم حركة الحياة وَفْقَ مُرَاد الله، لا قيمة لها، بل عدمها أَوْلَى؛ ولذا جاء هنا اسمه ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ واقعًا بين ﴿ٱقْرَأْ﴾، وبين ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، بعد ابتداء المطلع بذِكْر الخَلْق مسبوقًا بـ﴿ٱقْرَأْ﴾ أيضًا.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾:

ثمَّ يأتي ختام المطلع دليلًا وتفصيلًا لشيءٍ من كمال أكرميَّته -سبحانه وتعالى-؛ لأنَّ الغرض المسوق له الكلام هنا هو بيان أكراميَّته تعالى، والإشعار بأنَّ أشرف النعم وأجلَّها هو العِلْم.

فمن فيض اسمه ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ كان القلم -الذي هو قطعة جامدة من الحَطَب، أو الخشب- أداةً للعِلْم والمعرفة ففتح به على النَّاس أبواب العلوم والمعارف، وجعل من ثماره تلك الكتب التي حفظت ثمار العقول، فكانت ميراثًا للعلماء، يرثها الخَلَف عن السَّلف، وينمّيها ويثمرها العلماء جيلًا بعد جيلٍ، وبهذا تعلَّم الإنسان ما لم يعلم(١)، علَّمه ربُّه علومًا لا حصر لها، وما كان له أن يعلمَها لولا توفيق ربّه، وعطاؤه، وإكرامه.

وتؤكِّد الآيتان ما ورد في الآيات السَّابقة، وتَعِدُ مَنْ يقرأ باسم ربّه بإكرامه بعِلْم ما لم يعلم، فهي مرتبطةٌ بمطلع السُّورة ارتباطًا وثيقًا، ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ لأنَّ ﴿ٱقْرَأْ﴾ تشمل القلم أيضًا، فالقلم يشير للمكتوب، والقراءة تشمل المكتوب والمسموع.

وقد وصف سبحانه نفسَه بقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾، والعلم هو إدراك الشيء بحقيقته، وأَعْلَمْتُهُ وعَلَّمْتُهُ الأصل واحدٌ، إلَّا أنَّ الإعلام اختصَّ بما كان بإخبارٍ سريعٍ، والتَّعْلِيمُ اختصَّ بما يكون بتكرير وتكثير، حتَّى يحصل منه أثرٌ في نفس المُتَعَلِّمِ(٢)، والتَّكرير والتَّكثير حتَّى يحصل أثرٌ في نفس المتعلِّم هو أيضًا من كرمه سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١، ٢].

وَمُقْتَضَى الظَّاهِرِ: و﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ لكن التعبير بالظاهر لِتَأْكِيدِ مَا يُشْعِرُ بِهِ ﴿رَبِّكَ﴾ مِنَ الْعِنَايَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وَأَنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: ج٦ صـ٩٧.
(٢) المفردات، للراغب الأصفهاني، مادَّة «علم».

شَأْن من شؤون الرَّبِّ اخْتَصَّ بِهَا عَبْدَهُ إِتْمَامًا لِنِعْمَةِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَيْهِ، وَلِيَجْرِيَ عَلَى لَفْظِ الرَّبِّ وَصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾(١).

وقد جاء الفعل ﴿ٱقْرَأْ﴾ بصيغة الأمر مكرَّرًا مرَّتَيْن في إشارةٍ إلى أنَّ القراءة مرَّةً بعد مرَّةٍ شرطٌ في ثبوت العِلْم، بينما جاء الفعل ﴿عَلَّمَ﴾ بصيغة الماضي؛ لأنَّ الله –سبحانه- هو الذي تولَّاه، فدلَّ على تحقُّق وقوعه، وثبوته على أكمل وجهٍ.

ونلحظ –كذلك- أنَّ الآيتَيْن قد ذُكِرَ فيهما لفظ ﴿عَلَّمَ﴾، ولم يذكر لفظ ﴿هَدَىٰ﴾ -مثلًا- كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]؛ ذلك أنَّ التَّعليم الخاصَّ يستلزم الهدى العام من غير عكسٍ، وهذا -بلا شكٍّ- أقرب إلى إثبات النبوَّة، فهي نوعٌ من التَّعليم، وليس جعل الإنسان نبيًّا بأعظم من جعل العلقة إنسانًا حيًّا عالمًا ناطقًا سميعًا بصيرًا متكلِّمًا، قد علم أنواع المعارف(٢).

والفعل ﴿عَلَّمَ﴾ يتعدَّى –هنا- لمفعولَيْن محذوفَيْن إيجازًا، ويدلُّ عليهما «القَلَم»، فالمعنى: علَّم الكاتبين الكتابة بالقلم، فهو يشمل الملائكة الكاتبين، والإنسَ والجنَّ، وكلَّ مَنْ يتأتَّى منه التعلُّم إلى يوم القيامة، وفي حذف المفعول تركيزٌ على التعليم بالقلم، «فالآية لفتٌ إلى سرِّ القلم من حيث هو أداة الكتابة التي يدوَّن بها العلم، ويحفظ وينقل على امتداد الزمن، والمكان، وتتابع الأجيال، وبذا يتَّسع المقام لكلِّ ما عدَّه المفسرون من شرف القلم، وفوائد الكتابة»(٣).

فمعنى ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾: علَّم الكتابة به، أو علَّم العلوم الكثيرة المتولد بعضها من بعض بواسطة القلم، فقد جعل من وسائل اكتساب المعارف والعلوم وسيلة القلم، فبالقلم تدور المعارف والعلوم المكتسبة بالإدراك الخفي، أو الاستنتاج العقلي، وبالتأمُّل الفكري أو الخبر الصادق، فتكون جاهزةً للقراءة فيستعيد القارئون ما سبق أن دُوِّن بالقلم، ويتذكَّر بالقراءة الذين سبقت لهم المعرفة.

(١) يراجع التحرير والتنوير، لابن عاشور: م١٥ ج٣٠ صـ٤٣٩.
(٢) التفسير الكبير، لابن تيمية: ج٧ صـ٢٦٩.
(٣) التفسير البياني، د/ عائشة عبد الرحمن: ج٢ صـ٢٢.

وقد علَّم الله الناس الكتابة فجعلهم مستعدِّين لاكتساب وابتكار صنعة الكتابة والقراءة، وبإلهامهم أن يضعوا الرموز الخطيَّة للحروف، والكلمات، والأعداد، أو بالوحي إلى بعض أنبيائه أن يكتب ويقرأ، ويعلم قومه أصول الكتابة والقراءة(١).

وفى اختصاص «القلم» دون غيره من أدوات العلم في الآية إشارة إلى نعمة «القلم»؛ فهو من أشرف المخلوقات؛ ولذا أقسم الله به في كتابه العزيز، وسمَّى سورةً من القرآن باسم «القلم»: ﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]، وذكره كذلك في مواضع من كتابه، فدلَّ على أنَّ معالجة آفة النِّسيان تكون بتقييد العلم بالقلم، وبالتلخيص وتدوين الفوائد والفكر والملحوظات(٢).

كما إنَّ التعليم بالقلم يقتضي تعليم الخطِّ، والخطُّ يطابق اللفظ، وهو البيان والكلام، ثمَّ اللفظ يدلُّ على المعاني المعقولة التي في القلب، فيدخل فيه كلُّ علمٍ في القلوب(٣).

والآية تزيد في اطمئنان نفس المصطفى -ﷺ-؛ فالقلم آلةٌ جامدةٌ لا حياة فيها، ولا من شأنها في ذاتها الإفهام، والذي جعل من الجماد الميِّت الصامت آلةً للفَهْم والبيان ألَّا يجعل منك قارئًا مبيِّنًا، وتاليًا معلِّمًا وأنت إنسان كامل؟!(٤).

وهي كذلك تشير إلى شرف العلم، ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره الله –سبحانه- عقب صفة الأكرميَّة، كما تدلُّ على أنَّ مزيد كرم العلماء بالتعليم، وأنَّ كرم العالم في بذل علمه، وتعليمه الناس والأخذ بِيَدِ الخَلْق إلى الحقِّ الأكرم سبحانه وتعالى.

وفي ذِكْرِ التعليم بالقلم –كذلك- إشارةٌ إلى أنَّ للعلم وسائل يجب أن تلتمس، فليس العلم مسألةً وهبيَّةً، بل لا بُدَّ من السَّعي إليه بأسباب لتحصيله: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ ولذا جاءت الآية مشيرةً إلى أداةٍ من أدوات العلم: «القلم»، وإذا امتلك الإنسان وسائلَ العلم، واجتمعت له أسبابُه، فلا ينبغي له -أبدًا- أن ينسى أنَّ ذلك كلَّه من محض إكرام

(١) يُرَاجَع معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٤٨.
(٢) وسيأتي مزيد إيضاحٍ في الحديث عن تناسب المطلع مع سورة القلم: صـ٦٢- ٦٥ من البحث.
(٣) انظر التفسير الكبير، لابن تيمية: ج٧ صـ٢٧٠.
(٤) محاسن التأويل، للإمام القاسمي: ج٩ صـ٥٠٨.

الله لـه، فلا يتعالى على الخَلْق بعِلْمِه، ولا ينسى أبدًا مهمَّة العالِم من العمل بعِلْمه، وتعليمه الناس؛ ولذا بدأت الآية بـ﴿عَلَّمَ﴾.

وقد ينسى الإنسان إذا ما اجتمعت له أسباب العِلْم ووسائله، أنَّ الله هو الذي أكرمه ووهبه هذا العلم، والعلم وحده وبالٌ على صاحبه إذا خلا من تقوى تلازمه، وعملٍ ودعوةٍ إلى الله به؛ ولذلك يذكر القرآن في مطلع نزوله تلك الحقيقة؛ ليكون العبد منها على ذِكْرٍ ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾.

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾:

ثمَّ تأتي آخر آيات المطلع تأكيدًا لسابقتها، وبيانًا لها، لكنَّها خصَّصت المعلَّم ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وعمَّمت التعليم: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، إذ هي أرحب دلالةً وميدانًا من ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾.

وقد اختلف المفسِّرون في المقصود بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في الآية، فقيل: هو آدم -عليه السلام- بدلالة قوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وقيل: هو النبي -ﷺ- لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء: ١١٣]، وعلى الرأي الثاني يكون قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ﴾ في سورة العلق من التعبير عن المستقبل بالماضي للدلالة على تحقُّق وقوعه؛ لأنَّ الآية من مطلع الوحي الإلهي(١).

والأقرب لسياق المطلع: أنَّ (أل) لجنس الإنسان؛ فهذا العموم يناسب سياق التنزيل الذي ذكر الله فيه نعمتي: الخَلْق والتَّعليم بصيغة العموم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، كما إنَّ دلالة الإنسان في السياق القرآني تقوي معنى العموم في الآية؛ فكلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في البيان القرآني لا تكاد تأتى في غير سياق المذمَّة وكأنَّه لوحظ في الإعراب اشتقاقها

(١) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي: ج١٠ صـ٣٦٢.

من الإنس، والنِّسيان، فصُبِغَت الكلمة من الأصلَيْن الذي أوَّله سببٌ، وثانيه نتيجةٌ ومسبّبٌ عنه، لما أنس بالتمتُّع بحظِّ نفسه من النعمة نسي حقَّ منعِمها عليه شكرانًا، فكان إنسانًا(١).

وقد بدأ المقطع الثاني من السورة بقوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، وهذا يقرِّب المعنى الأخير.

وفى قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ إيجاز قصر تتَّسع دلالته لكلِّ ما أنعم الله به على العبد من العلم إلى يوم القيامة، فقد علَّمه بلُطْفه وحكمته ما ينتظم به حاله في دينه من الكتاب والسُّنَّة، وفى دُنْياه من المعلومات والصنائع، ويفيض عليه من عِلْمه الذي لا سببَ له ظاهر(٢).

وذكر الإمام الرازي احتمال أن يكون المراد من اللفظَيْن واحدًا، ويكون المعنى: «علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه»، فيكون قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ بيانًا لقوله: ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾(٣).

وهذا احتمالٌ يُضيِّق عطاء دلالة ﴿عَلَّمَ﴾ ويحصره في باب التعليم بالقلم، والتعليم ليس مقصورًا على ذلك، فالسَّماع، والتَّلقي، والمشاهدة، والتجربة، والمراجعة كلُّها وسائل للتعلُّم، كما إنَّ مقام تعرّف ربنا -سبحانه- إلى عباده يناسبه اتِّساع الدلالات التي تجمع وجوه الفضل والنعم على العباد.

وفى الآية زيادة اطمئنانٍ لنَفْس النبيِّ -ﷺ- بِأَنَّ عَدَمَ مَعْرِفَتِهِ الْكِتَابَةَ لَا يَحُولُ دُونَ قِرَاءَتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، فَالَّذِي عَلَّمَ الْقِرَاءَةَ لِأَصْحَابِ الْمَعْرِفَةِ بِالْكِتَابَةِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَكَ الْقِرَاءَةَ دُونَ سَبْقِ مَعْرِفَةٍ بِالْكِتَابَةِ، كما إنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ يُشْعِرُ أَنَّ الْعِلْمَ مَسْبُوقٌ بِجَهْلٍ، فَكُلُّ عِلْمٍ يَحْصُلُ فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ مِنْ قَبْلُ، أَيْ: فَلَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ أَنْ تَصِيرَ عَالِمًا بِالْقُرْآنِ وَالشَّرِيعَةِ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُ قِرَاءَةَ مَا يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ، وَفِيهَا -كذلك- إِشَارَةٌ إِلَى الِاهْتِمَامِ بِعِلْمِ

(١) الكلمة نورٌ محاورات منهجيَّة في كتاب شرح أحاديث من صحيح مسلم، د/ محمود توفيق سعد، ط. مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ه= ٢٠١٧م: صـ٢٤.
(٢) نظم الدُّرَر، للإمام البقاعي: ج٨ صـ٤٨٢.
(٣) تفسير الإمام الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٨.

الْكِتَابَةِ، وَبِأَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِلنَّبِي -ﷺ- مَا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ اتَّخَذَ النَّبِيُّ -ﷺ- كُتَّابًا لِلْوَحْيِ من مبدأ بَعْثَتِه(١).

والآيتان تؤكِّدان ما ورد في الآيات السَّابقة، حيث أمر الله بالقراءة، ووعد القارئ باسمه الأكرم، ففيها وعد لطالب العِلْم إذا هو صدق وبدأ عمله مستعينًا بربِّه أن يعينَه ويذلِّلَ له العقبات، وأن يفتحَ له فتحًا من عنده باسمه الأكرم، ويمنَّ عليه إذا عمل بما عَلِمَ أنْ يعلِّمَه ما لم يكن يَعْلَم.

ونلحظ أنَّ الله –سبحانه– قد جمع في هذا المطلع بين نعمتي: الخَلْق والعِلْم، وهما من أعظم نِعَم الله على الإنسان، وقد جرت سُنَّة القرآن أنْ يُقْرِنَ بَيْنَ هاتَيْن النعمتَيْن؛ وذلك للإشارة أنَّ الخلق وحده لا يكفي ليحيا الإنسان حياةً طيِّبةً، بل لا بُدَّ له من العِلْم، بل جعل الله هذا العِلْم ميزة الإنسان التي تميِّزه من جميع المخلوقات(٢).

وقدَّم نعمة «الخلق» على العموم؛ لأنَّها كذلك في الحقيقة، ثمَّ ذكر خلق الإنسان بعد الخلق العام، وكلُّ إنسانٍ يُولَد ومعه أدوات القراءة الذاتيَّة من السَّمع، والبصر، والفؤاد، وفي المقطع الثاني ذكر بعد التعليم بالقلم تعليم الإنسان ما لم يعلم، وهذا -أيضًا- من عطاء الربوبيَّة الذي يترجم تعهُّده –سبحانه- لخلقه بما يصلح أحوالهم.

وتبقَّى في المطلع مسألةٌ ذكرها الإمام الرازي -رَحِمَه الله- وهي أنَّ الله –سبحانه- وصف نفسه بأنَّه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وبأنَّه ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، وَلَا مُنَاسَبَةَ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، ثمَّ ردَّ هذا الكلام بقوله: «لَكِنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ أَوَّلَ أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ كَوْنُهُ عَلَقَةً، وَهِيَ أَخَسُّ الْأَشْيَاءِ، وَآخِرُ أَمْرِهِ هُوَ صَيْرُورَتُهُ عَالِمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَهُوَ أَشْرَفُ مَرَاتِبِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَكَأَنَّهُ –تَعَالَى- يَقُولُ: انْتَقَلْتَ مِنْ أَخَسِّ الْمَرَاتِبِ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، فَلَا بُدَّ مِنْ مُدَبِّرٍ يَنْقُلُكَ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ الْخَسِيسَةِ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ الشَّرِيفَةِ، ثُمَّ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ»(٣).

ويمكن أن نلمح مناسباتٍ أخرى تجمع بين خلق الإنسان من عَلَقٍ، وبين التَّعليم بالقلم، منها:

(١) التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور: م١٥ ج٣٠ صـ٤٤١ بتصرف.
(٢) تفسير سورة العَلَق، د/ فضل عبَّاس حسن: صـ٥.
(٣) تفسير الفخر الرازي: م١٦ ج٣٢ صـ١٧.

- أنَّ الخلق إيجادٌ من العَدَم، والعلم إيجادٌ من الجهل أيضًا، وما أشبه الجهل بالموت، وقد قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فالمعنى: أوَ مَنْ كَانَ ضَالًّا فَهَدَيْنَاهُ بِنُورِ الإيمَانِ.
- وكما جعل الله من العَلَقَة التي لا تسَاوي شيئًا إنسانًا حيًّا عاقلًا كاملًا، فقد جعل من القلم الذي هو قطعةٌ من الخشب أداةً تحفظ العِلْم، وتدوّن الكتب والرسائل التي تترجم حياة أمم وعقول، كان نتاج العَلَقَة إنسانًا حيًّا، ونتاج القلم حَيَوَاتٍ كثيرةً للنَّاس، والأمم، والحضارات، وهذا أيضًا من وجوه التَّناسب بَيْن الأمرَيْن.

وفى الآيتَيْن لفتٌ إلى ضربَيْن من التَّعليم: الأوَّل كسبي ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، والثاني وهبي ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وفي تقديم الكسبي على الوهبي ما يفهم منه أنَّ مَنْ أخلص واجتهد في هذا، واستثمر ما اكتسبه، كان من مثوبته أنْ يعلمه الله - تعالى- ما لم يعلم ، وفي هذا إغراءٌ للعبد أن يؤمَّ إلى اكتساب العِلْم، ولا يشغله عن ذلك شاغل، فإن أدَّى ما عليه، كان له من الفضل من ربِّه ما لا سبيل إلى اكتسابه إلَّا منه سبحانه وبحمده، ومَنْ إذا اجتمعا فيه كان لاجتماعهما فضل تميّز، فالكسبي وحده لا يفضي بصاحبه أن يكون له في صناعة العلم، وخدمته قدم، فللوهبي في ذلك أثرٌ بالغٌ(١).

(١) الكلمة نورٌ، د/ محمود توفيق سعد: صـ١٢٤.

المبحث الثاني

مطلع الوحي القرآني (قراءة في المناسبات)

تناسب المطلع مع سياق سورته

أ- التَّناسب بين آيات المطلع:

جلّى البحث في جانب القراءة البلاغيَّة ألوان التناسب بين مفردات كل آيةٍ، ومدى ملاءمة اللفظة لجارتها ولسياقها الذي وردت فيه، كما بيَّن مناسبة كلِّ آيةٍ لأختها في سياق المطلع الشريف، وأنت تقرأ آيات المطلع الشَّريف فترى روح التَّناسب تسري بين أعضائه، وتربط بين آياته ربطًا هو المثل الأعلى في الدقَّة، والإحكام، ففي المطلع الشَّريف يتعرَّف ربُّنا إلى عباده، ويتجلَّى بفيض ربوبيَّته على الخلق عمومًا، وعلى الإنسان خصوصًا، فهو -سبحانه- الذي خلق، وهو الذي علَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، «فهو الموجد، وهو المُمدُّ، أي: هو الخالق والرازق، وهاتان الصفتان: الإيجاد والإمداد هما خلاصة نعمة الله على عباده، اجتمع فيهما ما افترق في غيرهما، وهما أصل ما سواهما؛ ولذلك شرح الله بهما نعمته على النَّاس في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾»(١).

وقد جمع الله في هذا المطلع الشَّريف بين هاتَيْن النعمتين، وهو كثيرًا ما يقرن بينهما في كتابه، ترى ذلك في مطلع سورة الرحمن، وسورة الإنسان، وسورة البلد، وغير ذلك، فالخلق هو: إعطاء الوجود العيني الخارجي، والهدى هو: إعطاء الوجود العلمي الذهني، فهذا خلقه، وهذا هداه وتعليمه(٢).

والجمع بين هاتيْن في المطلع الشَّريف غاية التناسب، فقد خلق الله الإنسان، فهل يخلقه ثمَّ يتركه دون هدايةٍ وتعليمٍ؟! هذا لا يتَّفق أبدًا مع صفتي: الربوبيَّة والأكرميَّة، وهو الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هدى؛ ولذا كان من المناسب أن يأتيَ بالعلم بعد الخلق، وأن يشيرَ إلى أنَّ هذا من كمال أكرميَّته بعباده، وتقديم الخلق على التَّعليم هنا؛ لأنَّه أظْهَرُ آيات الربوبيَّة وأشمَلُهَا؛ فهو يعمُّ جميع المخلوقات، والخلق صفة يقرُّ بها المشركون والكفَّار؛ ولذا ناسب أن يتقدَّم

(١) محاولة لدراسة سورة العَلَق، الشَّاهد البوشيخي: صـ٩٨.

(٢) انظر شفاء العليل، لابن القيِّم، تحقيق: محمد بدر الدِّين، ط. دار القلم- بيروت، ١٣٩٨ه: صـ٧٩.

ذِكْرُها، ثمَّ يأتي من بعدها نعمة التَّعليم، ولعلَّ هذا هو السرُّ كذلك في ذكر اسم «الرَّبّ» دون لفظ الجلالة في مطلع الوحي الشَّريف.

ولعلَّك تلحظ كذلك هذا التَّناغم والتَّلاؤم في ذكر الخاصِّ بعد العام في آيات المطلع، فقد ذكر الخلق عمومًا، ثمَّ خصَّ خلق الإنسان، كما ذكر التَّعليم عمومًا، ثمَّ خصَّ تعليم الإنسان ما لم يعلم.

ومن ألوان التَّناسب والتَّلاؤم بين أجزاء المطلع ما تراه من كثرة الأفعال وتقاربها وتوالدها ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿عَلَّمَ﴾، ﴿عَلَّمَ﴾، ﴿يَعۡلَمۡ﴾، وهذه الكثرة في الأفعال وتناميها يتناسب مع نعمة الربوبيَّة، التي تتدفَّق عطاياها ونعمها في تنامٍ عبر الزمن على الخلق، وخاصَّة الإنسان، وحين اقتضى السِّياق دلالة الثَّبات والدَّوام الذي يعلو الزمان والمكان جاءت الجملة الاسميَّة ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

كما جمع المطلع –في تناسبٍ رقيقٍ- بين دلالتي: العقل والنَّقل، فأشار إلى دلالة العقل بـ﴿خَلَقَ﴾، و﴿عَلَقٍ﴾، وأشار إلى دلالة النَّقل ﴿بِٱلۡقَلَمِ﴾، وجمع كذلك بين القراءة والكتابة، وهما أعظم أدوات العلم، وأبوابه، وحفظه، وفهمه، ونقله من سائر الحضارات وإليها.

ب- تناسب المطلع مع مقصود السورة:

ذكر الإمام البقاعي –رَحِمَه الله- أنَّ المقصود الأعظم للسورة هو: «الأمر بعبادة مَنْ له الخَلْق والأمر، شكرًا لإحسانه، واجتنابًا لكفرانه، طمعًا في جنانه، وخوفًا من نيرانه، لما ثبت من أنَّه يدين العباد يوم المعاد»(١).

وجاء هذا في سياق تعرُّف ربِّنا إلى عباده بأعظم مظاهر الربوبيَّة: «الخلق والتَّعليم»، وإذا كان المقصود هو الأمر بالعبادة، فلا رَيْب أنَّ أساس صحيح العبادة هو صحيح العلم، ومفتاح باب العلم والنور هو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، فتحديد مفهوم العبادة، وأركانها، وتفصيلاتها، والتعرُّف على مراد الله كاملًا من عباده، وتحديد معالم صراطه المستقيم هذا كله بابه العلم الذي

(١) مصاعد النَّظر للإشراف على مقاصد السور، للإمام البقاعي: ج٣ صـ٤.

مفتاحه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فالقراءة مفتاح باب العلم والنور، وتشاركها في ذلك الكتابة التي أشار إليها ربُّنا -سبحانه- بقوله: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾.

كما تناول المطلع الشَّريف أعظم مظاهر الربوبيَّة: «الخلق والتَّعليم»، والقراءة هي مفتاح باب العلم، كما إن التعرف على فيض ربوبيَّته -سبحانه- والتفكر في نعمه التي لا تحصى إيجادًا، وإمدادًا، وهدايةً، وإرشادًا، وتوفيقًا، وسدادًا، هو مفتاح باب الدِّين، والقرب الأقدس من حضرة الجليل –عزَّ وعلا-، ومعرفته حق المعرفة، ومعرفة الله –عزَّ وعلا- هي أصل الدِّين، وباب المحبَّة الخالصة له؛ لأنَّ مَنْ عرفه حقَّ المعرفة أحبَّه حقَّ المحبَّة، وتفانى في تنفيذ أوامره، واجتناب نواهيه، ويكون منتهى أمله أن يتقبَّلَ الله طاعته، وأن يلحقَ بالصَّالحين الذين يتولَّاهم الله في الدنيا والآخرة.

ج- تناسب المطلع مع أجزاء السورة الكريمة:

حين تنظر في علاقة المطلع بسائر أجزاء السورة، ترى كائنًا حيًّا، متلائم الأعضاء، متناسق الأجزاء، تأتي كلُّ ذرَّة منه في مكانها بقدرٍ معلومٍ، ففي مطلع السورة الشَّريفة يتعرَّف ربُّنا إلى عباده ربًّا خالقًا، ويخصُّ الإنسان من بين سائر مخلوقاته بالذِّكْر، ويمتنُّ عليه مع الخلق بالتَّعليم، فهو يتقلَّب في نعم الإيجاد، والإمداد، والهداية، والرَّشاد، ثمَّ تأتي الآيات التالية لتجيب عن استشراف النَّفس وتطلعها إلى معرفة موقف الإنسان من هذه النعم، هل أدَّى حقَّها؟ وهل استشعر حاجته وافتقاره إلى واهبها، وإلى منهجه الذي ينير له الطَّريق إلى ربِّه، ويقيم حياته على منهاجه؟ فيأتي الجواب: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

لقد طغى الإنسان؛ لأنَّه شعر بالاستغناء بالأسباب التي أنعم الله بها عليه، ثمَّ مضت السورة الكريمة تذكِّره بالآخرة، التي ستنكشف فيها الحقائق: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨﴾[العلق: ٨]، وذكرت نموذجًا من الطغيان في مواجهة أهل الحقّ، وهو الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى، فذكرت السورة هذين النموذجَيْن متجاوزة حدود الأشخاص، إلى جعلها نماذج بشريَّة تتكرَّر ما كان على الأرض حياة، فالصِّراع بين الحقّ والباطل باقٍ إلى قيام السَّاعة، وتوعَّدت السورة هذا الطَّاغي بشديد العذاب، كما ثبَّتت صاحب الحقّ الذي قرأ باسم ربِّه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق: ١٩].

فسورة العلق تنقسم إلى قسمَيْن: قسم يتحدَّث عن نعم الله -ﷻ- على الإنسان، وقسم يتحدَّث عن آثار تلك النعم، وموقف الإنسان منها، وجزاء الإنسان على ذلك شاكرًا أو كافرًا.

«تبدو السورة جسدًا واحدًا سويَّ الخلقة في أحسن تقويمٍ، مفتاحها كلمة «ربّ»، منها تفيض السورة بأكملها، وعلى معناها ومقتضياتها تدور، فهو -تعالى- لأنَّه ربُّ الإنسان، أنعم على الإنسان، وتلقَّى الإنسان النعمة فشكر أو كفر، ومَنْ كفر عاداه الله، ومَنْ شكر تولَّاه الله، وسيرًا على هذا التدرج يتجلَّى ربُّنا أوَّل السورة ربًّا مُنْعِمًا، وفي وسطها ربًّا مُمْهِلًا غير مُهْمِلٍ، وفي آخر السورة ربًّا مُوعِدًا وَاعِدًا»(١).

وقد أخرجت هذه الوحدة المعنويَّة في صورة وحدةٍ بنيويَّة غاية في الإحكام، فالمُخَاطَبُ من أوَّل السورة إلى آخرها واحدٌ، هو الرسول -ﷺ- أوَّل مرَّةٍ، وكل مؤمن من بعده في مثل حاله إلى قيام السَّاعة، والمُخَاطِبُ من أوَّل السورة إلى آخرها واحدٌ هو الله -ﷻ-، والتدرج من الحديث عنه أوَّل السورة بضمير الغائب ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَّمَ﴾ إلى الحديث عنه آخر السورة بضمير المتكلِّم ﴿لَنَسْفَعًا﴾، ﴿سَنَدْعُ﴾ يتناسب مع التعريف به أوَّلها، ونصرته لأوليائه آخرها، كما يتناسب مع تدرج صلة وليِّه به، التي منتهاها المحبَّة: **«فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ».**

والمقاطع وإن كانت متعددةً، فهي في ترابطها ومشابهة بعضها لبعضٍ، وبناء بعضها على بعضٍ، وإسلام بعضها لبعضٍ، كالمقطع الواحد؛ فالثاني له نفس بداية الأوَّل ﴿اقْرَأْ﴾، والرابع، والخامس لها نفس بداية الثالث ﴿كَلَّا﴾، والحروف، والكلمات، والجمل، والآيات، كلها تتعاون وتتساند لأداء المراد مبلغة رسالة الله إلى العباد على امتداد الزمان والمكان بأمانةٍ، ودقَّةٍ، وإحكامٍ، ويُسْرٍ(٢).

د- تناسب المطلع مع خاتمة السورة:

(١) محاولة لدراسة سورة العَلَق، للشَّاهد البوشيخي: صـ١٠٣.
(٢) يُرَاجَع: محاولة لدراسة سورة العَلَق، للشَّاهد البوشيخي: من صـ١٠٣ إلى صـ١٠٥.

بدأت السورة الكريمة بالأمر ﴿اقْرَأْ﴾، وخُتِمَت بأمرَيْن: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ ، وسبق الأمرَيْن نهيٌ ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، والمخَاطَبُ فيها واحدٌ هو رسول الله -ﷺ- أوَّلًا، وكلُّ مَنْ يتأتَّى خطابه إلى قيام السَّاعة، والمخَاطِبُ فيها واحدٌ هو الله – سبحانه وتعالى-.

وجمعت السورة بمطلعها وخاتمتها بين العِلْم والعمل، وهذا الجمع هو ما يميِّز الصراط المستقيم؛ لأنَّ العلم بغير عملٍ هو صراط المغضوب عليهم، والعمل بغير علمٍ هو صراط الضَّالين، وتقدُّم العلم: ﴿اقْرَأْ﴾ على العمل: ﴿لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾؛ لأنَّ العلم هو الأساس الذي يُبْنَى عليه العمل، والنور الذي يضئ الطَّريق من المسير إلى المصير، «وكأنَّ العمل يجزي العلم على ما قدَّمه له من تأسيسه على هدى ونورٍ، فيجزيه بأن يكون هو أداة تبليغه، وحفظه، وتفسيره، وتقريبه، ممَّا يحقِّق للعلم حفظه من الضَّياع، ومن الإبهام، ومن التخالف في فهمه...، وطريف أن تكون فاء الكلمة «عينًا»، وهو حرف يحمل في دلالته الجلاء، والقوَّة، والظُّهور، وكأنَّ في هذا هداية إلى أن يؤسس العلم على هذه الصِّفات، ويأتي «الميم» وهو حرفٌ يتَّسم بالدلالة على الجمع والقوَّة، ولا سيَّما إذا زيد في آخر الكلمة، مثل: «اللهمَّ»، فجعلت الميم لام الفعل؛ ليهدي إلى أهمية جمع دقائق العلم ولطائفه، فمبدؤه جلاءٌ، وقوَّةٌ، ومنتهاه جمعٌ وقوَّةٌ»(١).

وفي تقدُّم النهي: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ ما يفيد أنَّ معرفة الحقِّ تحمل أهله على مخالفة أمر مَنْ ينهى عنه، كما تحمل على فعله، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي البدء بالقراءة والختام بالسُّجود تناسب من جهة أنَّ القراءة أعظم مفاتح العلم، الذي هو أساس العمل، وعمود بناء الحضارات، والسُّجود أعظم أركان الصَّلاة؛ لأنَّ العبد أقرب ما يكون من ربِّه وهو ساجدٌ، ومن اللطيف: أنَّ الله -سبحانه- وَسَّطَ السُّورة بعبادة الصَّلاة التي تجمع الأمرين: القراءة، والسُّجود، **يقول ابن تيمية** –رَحِمَه الله-: «سُورَةُ ﴿اقْرَأْ﴾ هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ

(١) انظر: الكلمة نورٌ، د/ محمود توفيق سعد: صـ٢٨٠، وصـ٢٨٢.

الْقُرْآنِ؛ وَلِذَا افْتُتِحَتْ بِالْأَمْرِ ﴿اقْرَأْ﴾، وَخُتِمَتْ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ، وَوُسِّطَتْ بِالصَّلَاةِ، الَّتِي أَفْضَلُ أَقْوَالِهَا، وَأَوَّلُهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ هُوَ الْقِرَاءَةُ، وَأَفْضَلُ أَعمالِهَا وَآخِرُهَا قَبْلَ التَّحْلِيلِ هُوَ السُّجُود»(١).

والقراءة باسم الله، والسُّجود له، كلاهما عبادةٌ تأخذ بيد العبد إلى حضرة القرب الأقدس، والاقتراب ثمرة السُّجود والقراءة باسم ربِّك، فأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ، فإذا قرأت باسم ربِّك، وشاهَدَ قلبُك فيضَ ربوبيَّته وأكرميَّته، سجد قلبُك سجدة المحبِّ الشَّكور لآلاء ربِّه ونعمه التي لا تُحصى.

(١) التفسير الكبير، لابن تيمية: ج٧ صـ٤٥٢.

تناسب المطلع مع سياقه الترتيلي

أ- تناسب المطلع مع سورة التِّين:

أقسم ربُّنا –سبحانه وتعالى- بأربعة أشياء في مفتتح السورة الكريمة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، و﴿ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾، وهي مواطن الرِّسالات، وآخرها البلد الأمين –بلد خاتم المرسلين-، ومطلع سورة العلق هو أوَّل ما نزل به الرُّوح الأمين على قلب الأمين في البلد الأمين، **يقول ابن كثير –رَحِمَه الله-**: «وَقَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: وفي الأقسام الأربعة هَذِهِ مَحَالُّ ثَلَاثَةٌ، بَعَثَ اللَّهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا نَبِيًّا مُرْسَلًا مِنْ أُولِي الْعَزْمِ أَصْحَابِ الشَّرَائِعِ الْكِبَارِ، فَالْأولى: مَحَلَّةُ التِّينِ وَالزَّيْتُونِ، وَهِيَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ. وَالثَّانِي: طُورُ سِينِينَ، الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ. وَالثَّالِثُ: مَكَّةُ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَهُوَ الَّذِي أُرْسِلَ فِيهِ مُحَمَّدٌ -ﷺ-»(١).

وقد أقسم الله -سبحانه- بهذه الأمور على أنَّه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفي هذا بيانٌ لعظيم قدرته -سبحانه-، وهو الأمر الذي تجلَّى –أيضًا- في مطلع سورة العَلَق، إذ تعرَّف ربُّنا على عباده بصفة الخلق عمومًا، ثمَّ بخلق الإنسان خصوصًا، وفي سورة التين بيانٌ لصورة الخلق، وفي مطلع العَلَق بيانٌ لمادَّة الخلق.

ثمَّ يقول ربُّنا عن الإنسان: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥]، لقد اختار الإنسان الهبوط إلى أسفل سافلين، وأتى مطلع العَلَق بمنهج الارتقاء من أسفل سافين إلى أحسن تقويم، وهو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، فهذا مفتاح باب النور الذي يجعلهم من الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فهؤلاء هم أهل ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ الذين تقلَّبوا في فيض ربوبيَّته، مؤمنين بخالقيَّته، وأكرميَّته، ووحدانيَّته، فكيف يصير العبد في أحسن تقويم؟ بالمنهج التربويّ الذي رسمه مطلع الوحي القرآني.

ثمَّ إنَّك تجد في سورة العَلَق تفصيلًا أيضًا لهذيْن النموذجيْن: المردود إلى أسفل سافلين، ومَنْ آمن وعمل صالحًا، تجد في سورة العَلَق مَنْ أكرمه الله وعلَّمه ما لم يعلم، فصار على الهدى، وأمر بالتقوى، وسجد واقترب، وتجد –

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: ج٤ صـ٢٤٩.

كذلك- مَنْ طغى واستغنى، وكذَّب بالرُّجعى، ونهى عبدًا إذا صلَّى، وهذا أيضًا من وجوه التناسب والارتباط بين مطلع العَلَق وسورة التين.

ثمَّ يقول سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾ [التين: ٧]، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ تعجيبي، وجاء مطلع سورة العَلَق ليبدد هذا الإنكار والتَّكذيب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، تأمل خلق السَّماوات والأرض، لتوقن أنَّ الله لم يخلقها باطلًا ولا عبثًا، وأنَّه لا يمكن أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات كالمفسدين في الأرض، ولا المتَّقين كالفُجَّار، بل اقرأ آيات الله في نفسك أنت، تدرك أنَّ إعادتك أهون عليه من خلقك من العدم، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨﴾ فمطلع سورة العَلَق لمن تدبره علمًا وعملًا يبدِّد ظلمات إنكار البعث عند المنكرين.

وخُتِمت السورة بقوله -سبحانه-: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨] إن كنت تريد إجابةً شافيةً في بيان حكمته العالية، فاقرأ كتاب كونه، وآيات وحيه، مستعينًا بربِّك الذي خلقك، وهو أعلم بك، فإنَّك إن فعلت ذلك نطقت بلسان حالك، ولسان مقالك: بلى يا ربِّ أنت أحكم الحاكمين وخير الحاكمين، ومن لطيف التناسب أن تختم سورة التين باسمٍ لم يرد بهذه الصيغة في القرآن كلِّه إلا مرَّتين[1]: «أحكم الحاكمين»، كما لم يذكر في القرآن اسمه «الأكرم» إلا مرَّةً واحدةً في مطلع سورة العَلَق، فمن كمال أكرميَّته أنَّه أحكم الحاكمين، ومن جمال حكمته أنَّه أكرم الأكرمين.

يقول الغرناطي: «فلمَّا قرَّر سبحانه للعبيد أنَّه أحكم الحاكمين، مع ما تقدَّم من موجب نفي الاسترابة في وقوع الجزاء إذا اعتبر ونظر، وقعت في الترتيب سورة العَلَق مشيرة إلى ما به يقع الشَّفاء، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء، وهو كتابه المبين الذي جعله تبيانًا لكلِّ شيءٍ، وهدى ورحمة وبُشْرى للمحسنين، فأمر بقراءته ليتدبَّروا آياته: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ أي: مستعينًا به، فسوف يتَّضح سبيلك، وينتهج دليلك»[2].

ب- تناسب المطلع مع سورة القدر:

(١) هود آية (٤٥)، والتين آية (٨).

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميَّة- المغرب، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م: صـ٣٧١.

مطلع سورة العَلَق هو أوَّل ما نزل من القرآن على الإطلاق، والخطاب فيه وفي سائر السورة موجهٌ إلى رسول الله -ﷺ- أوَّلًا، وسورة القدر تتحدَّث عن القرآن المنزَّل على رسول الله -ﷺ-، وأنَّه أنزل في ليلة القدر، ثم كان التعريف بعظيم قدرها للتعريف بجلال المنزَّل فيها، **يقول الغرناطي**: «أعلم سبحانه بليلة إنزاله، وعرَّفنا بقدرها؛ لنعتمدها في مظانِّ دعائنا، وتعلُّق رجائنا، ونبحث على الاجتهاد في العمل؛ لعلَّنا نوافقها... وكأنَّ في التعريف بعظيم قدرها التعريف بجلالة المنزَّل فيها، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدَّم ووضح اتصالها»(١).

وليلة القدر من أعظم الكرامات التي أكرم الله بها نبيَّنا وأمَّته، فهي خيرٌ من ألف شهرٍ، ومن جميل التَّناسب أن تأتي هذه الكرامة عقيب اسمه ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، وهو اسمٌ لم يرد ذكره في القرآن إلا مرَّةً واحدةً، وكذلك ليلة القدر، فهي في السنة ليلة واحدة، وهي الليلة المباركة التي ذكرها -سبحانه- في مطلع سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدُّخان: ٣]، وتأمل التَّلاؤم والتَّناغم بين: الأكرم، والقدر، والبركة.

كما تجد اسم «الرَّبّ» -عزَّ وعلا- يتلألأ نوره في مطلع الوحي، وفي آخر سورة القدر، ويأتي بعده نور الفجر، ونور الربوبيَّة من الأواصر القويَّة، التي تجمع المطلع بسورة القدر، فقد تكرَّر ذكره ثلاث مرَّاتٍ في سورة العَلَق: ﴿رَبِّكَ﴾، وفي سورة القدر يذكر ربُّنا نزول الملائكة بإذن ربهم ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر: ٤]، ففيض الربوبيَّة يغدقه الله على السَّماوات، والأرض، وما بينهما، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النَّبأ: ٣٧].

ومطلع السورتيْن كذلك خطابٌ للنَّبي -ﷺ- ففي مطلع العَلَق يأمره الله -سبحانه- بالقراءة، وفي مطلع القدر يقول -سبحانه- له: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ [القدر: ٢]، في الأولى أمرٌ له ومن يتأتَّى خطابه بالقراءة، وفي الثانية يقول لنبيّه -ﷺ- لم يبلغ إدراكك غاية فضلها، ثمَّ بيَّن له فضلها، واتحاد

(١) البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي: صـ٣٧٢.

المخَاطِب -سبحانه-، والمخاطَب -ﷺ- من ألوان التَّناسب والارتباط بين مطلع الوحي وسورة القدر.

تناسب المطلع مع سياقه التنزيلي

أ- تناسب المطلع مع واقع النزول وفطرة النفوس:

كانت الإنسانيَّة غارقةً في قاع الجاهليَّة، يرتع أهلها في الضَّلال، والعمى، والاضطراب في القِيَم، والأخلاق، والعقائد، والتصورات، ونظرة عابرة تريك الواقع يمور بالشِّرك، والوثنيَّة، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، تستطيع أن تسمع أنين الأرض وصرخاتها إلى بارئها بلسان حالها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾، أخرج يا ربَّنا النَّاس من الظلمات إلى النور.

وقد جاء مطلع الوحي الإلهي نورًا يهدي إلى الصِّراط المستقيم، ويخرج النَّاس من الظلمات إلى النور، ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، اقرأ كتاب الكون، وآيات الوحي مستعينًا بربِّك الذي خلق، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، فهذا مفتاح باب النور الذي يبدِّد ظلمات الجاهليَّة، هذه بذرة الإيمان الأولى، التي ستكون شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السَّماء، هي محور الإيمان الذي يزلزل بُنيان الشِّرك، ويهدم أركان الظُّلم الذي جثم على صدور الخلق، ويجعل طريق الخلق إلى الله واضحة المعالم، لا يشوبها ظلام الشُّبهات، ولا غَبَش الشَّهوات.

وهذا الأمر الذي بدأ الله به كتابه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، هو أوَّل مادَّة في دستور الإسلام وَسَمَتْهُ بالعلم من لحظة ميلاده الأولى، وألقت بالمسؤولية على الإنسان، فهو مأمور بالقراءة باسم ربِّه، وكون القراءة باسم الله هي الفصْل بين قراءة الإسلام، وغيره من الحضارات، وإذا نظرت إلى الشدَّة التي أصابت النبيَّ -ﷺ- في أوَّل الوحي، وأنَّ جبريل غطَّه ثلاث مرَّاتٍ حتى بلغ منه الجهد قبل أن يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، -حتى يكون على استعدادٍ لحمل تبعات الرِّسالة، والسبح الطويل بالقول الثَّقيل- هذا كلُّه يلفت إلى أنَّ الخروج من هذه الظلمات إلى النور يحتاج إلى كدٍّ، وجدٍّ، ونصَبٍ، وأنَّه ليس بالأمر الهيِّن أن يقرأ المرء آيات كونه، ويتدبَّر آيات وحيه، إلا إذا قرأ باسم ربِّه الذي إذا استعان به أعانه، وإذا استهداه هداه.

كذلك لفظ «القرآن» هو أشهر أسماء الذِّكْر الحكيم، وإذا كان كتاب الأمَّة اسمه «القرآن» فلا ريبَ أن أنسب ابتداء له يكون بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأن تكون قراءته ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ لتؤتي القراءة أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها.

«وفطرة الإنسان التي لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، هي أن يكون على معرفةٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، فإذا لم يشبع من فطرته تلك حاجتها من المعرفة، تأزَّمت نفسه لذلك النَّقص الذي يحدُّ من إنسانيَّته، بل يحدُّ من قدرته على الحياة، وأمَّا إذا أشبع تلك الحاجة، أقرَّ بذلك نوازع نفسه، ولكن ما وسيلته إلى تلك المعرفة التي هي من حياته بمثابة القلب والصَّميم؟ وسيلته هي: أن يقرأ، ومن هنا كان أوَّل الوحي هو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»[1].

ب- تناسب المطلع مع سورة المدثِّر (أول ما نزل بعد انقطاع الوحي):

مطلع سورة العَلَق هو أوَّل ما نزل من القرآن، وتلاه مطلع سورة المدثر بعد انقطاع الوحي –على الرَّاجح-[2]، وقد بدأت السورتان بخطاب المصطفى -ﷺ-، لكن مطلع المدثر قد بدأ بالنداء قبل الأمر، والنداء بهذه الأوصاف فيه مراعاة لحاله، وفزعه حين رأى جبريل على صورته، وفيه كذلك لفتٌ لطيفٌ إلى أنَّ هذا التدثُّر الذي هو عنوان الراحة والدَّعة لا يتَّفق والمهمَّة التي ستلقى الآن على عاتقه؛ ولذلك أتبع هذا النداء بالأمر بالقيام للإنذار والتبليغ، وتحمل تبعات الرّسالة.

كذلك تلحظ الدقَّة في التَّناسب والتَّلاؤم، حين ترى ترتيب المعاني، وبناء بعضها على بعضٍ، فـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، عِلْمٌ، ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ عملٌ، و﴿فَأَنذِرۡ﴾: دعوة إلى ما علمه وعمل به، وقُدِّم العلم؛ لأنَّه الأساس الذي يُبْنى به العمل على نورٍ، وعمود الدَّعوة الذي تكون به على بصيرةٍ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهذا هو منهج النَّجاة من الخُسْر الذي رسمته سورة العصر: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ٣].

(١) رؤية إسلاميَّة، د/ زكي نجيب محمود: صـ٢٨.
(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم، د/ محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السُّنة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م: صـ١٠٥.

ومن ألوان التَّناسب والارتباط –أيضًا-: ما تراه في المطلعَيْن من تكرار ذكر اسم «الرَّبِّ» -عزَّ وعلا-: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾، والثاني مبني على الأوَّل أيضًا؛ فمعنى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: خصِّصه بالتكبير والتعظيم بين الخلق، كبِّره لأنَّه هو الذي خلق، وعلَّم بالقلم، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم، ولأنَّه الأكرم الذي إليه وحده الرجعى، وفي تخصيصه بالتَّكبير والتَّعظيم إشارة إلى تحقير وتسفيه كل ما عُبِدَ من دونه؛ لأنَّه لا يملك من صفات الربوبيَّة ما يجعله أهلًا للعبوديَّة، بل لا يملك لنفسه ضرًّا، ولا نفعًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، وإذا قرأ العبد باسم ربِّه كتاب الكون، وكتاب الوحي، علم أنَّه –وحده- الذي يستحقُّ العبادة، والتَّعظيم، ومَنْ كان من أهل الصِّراط المستقيم، لا بُدَّ له من الصَّبر على طول الطَّريق، وكثرة الأشواك، حتى يصل إلى النَّعيم المقيم: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾، اصبر على القراءة باسمه، وعلى تعليمه لك، وعلى استبانة فيض ربوبيَّته، وشكر نعمته، وعلى حمل تبعات الرِّسالة، وعلى تعظيمه وتسفيه كلِّ ما عُبِدَ من دونه –سبحانه وتعالى-.

ومن ألوان التَّناسب بين المطلعين: ما تراه من حذف مفاعيل الأفعال إيجازًا، ودلالةً على التعميم الذي تذهب فيه النَّفس كلَّ مذهبٍ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ﴿خَلَقَ﴾، ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ﴿فَكَبِّرۡ﴾، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، فلم يبيِّن لمَن يكون الإنذار؟ ومتى؟ ولماذا؟ ولا علامَ يكون الصَّبر؟

فقوله سبحانه: ﴿فَأَنذِرۡ﴾ تطوي وراءها قصَّةً طويلةً؛ لأنَّ الإنذار: الإعلام والإخبار بعواقب غير سارَّةٍ، وهو يكون بعد بلاغ مسائل الدِّين للمنذرين، وتعريفهم بأركان الدِّين، ودعوتهم إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده لا شريك له، فإذا كَذَّب المُبَلَّغون رسول ربِّهم، وكذبوا بما يأتيهم من عند ربِّهم، أنذرهم بعقابه يوم الدِّين، فجملة: «أنذر» تطوي في داخلها جملًا كثيرةً، تدلُّ على الوظائف التي يجب على الرَّسول أن يقوم بها قبل الإنذار، ولمَّا كان الإنذار يأتي في آخرها بمقتضى التسلسل الفكري والتربويّ، كان الاقتصار على الإنذار دليلًا عليها(١).

(١) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ٨٥.

وتقرأ في آخر سورة المدثِّر حديث أهل النار، فتجدهم يردون على مَنْ سألهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝٤٤﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٤]، فكان ترك الصَّلاة أوَّل سبب ذكروه في إجابتهم عمَّا سلكهم في سقر، وفي وسط سورة العَلَق يذكر ربُّنا -عزَّ وعلا- عبدًا طغى واستغنى، ونهى المؤمنين عن الصَّلاة، وإذا كان ترك الصَّلاة سببًا رئيسًا فيما يلقونه يوم القيامة، فكيف بمَنْ كذَّب وتولَّى، ونهى العباد عن الصَّلاة، وعن طاعة الله، وهذا أيضًا من وجوه التَّناسب التي جمعت بين السورتين.

ج- تناسب المطلع مع سورة المزمِّل:

سورة المزمل هي ثالث السور نزولًا، وإذا كانت سورة المدثِّر قد بدأت بعد النداء بالأمر ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، فإنَّ سورة المزمل قد بدأت أيضًا بعد ندائه بأمره -ﷺ- بالقيام: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾، فهو أمرٌ بقيام الليل؛ لأنَّه الزَّاد الذي يمنحه القوَّة، ويعينه على تحمُّل تبعات الإنذار، والسبح الطَّويل، والقول الثَّقيل.

وهذا النداء بـ«يا» التي للبعيد تلمح فيه معنى الملاطفة الجادَّة، التي تضمَّنت الإشارة إلى مهمَّات الرِّسالة، التي لا يتَّفق معها الإخلاد إلى السُّكون والرَّاحة، وفيه -كذلك- إشارةٌ إلى بُعْد المنزلة بين الرَّبِّ وعباده، مهما كان العبد ذا قُرْبٍ من الله بخضوعه، وعبادته، واصطفاء الله له، ولو كان أفضل الأنبياء والمرسلين، وإشارة إلى أنَّ الخائف المتزمل في حجرته مبتعدٌ يحتاج إلى مثل هذا النداء، وتنبيهًا على الاهتمام بالمطلوب بعد النداء(١).

وهذا الأمر بالقيام أتبعه بقوله -سبحانه-: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، وهو القرآن الكريم الذي بدأ بقوله سبحانه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العَلَق: ١].

والمراد بكونه ﴿ثَقِيلًا﴾: أنَّه حمَّال وجوه، ذو معانٍ وفيرةٍ غزيرةٍ ثوارةٍ فوارةٍ، لا يستطيع المتدبِّر الإحاطة بأسرارها، وفضَّ خفي دلالاتها، ودرر استنباطها، وبديع مناسباتها، لكن الله يفتح له إذا كانت قراءته باسم ربِّه الذي خلق، فهو ثقيل المعاني؛ ولذا كان من بديع الاستهلال أن تكون بداية الوحي ﴿

(١) معارج التفكر، لابن حبنَّكة: ج١ صـ١٥٧، ١٥٨.

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، وأن يعاد الأمر بالقراءة مرَّة أخرى في أولى آيات الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾، فمَنْ عاود القراءة مرَّةً بعد أخرى، أفاض عليه الأكرم ألوانًا من المعاني، وأخذ بيده إلى لطائف وأسرار لا يصل إليها إلا مَنْ هداه الله إليها، ودلَّه عليها، ورفع الحجب بينه وبينها، وعطاؤه دومًا فوق عطاء العبد الذي يبذله في فهم وتدبر معاني القرآن، فالحسنة بعشر امثالها، والله يؤتي مَنْ يشاء ما يشاء، ويرزق مَنْ يشاء بغير حسابٍ.

د- تناسب المطلع مع سورة القلم:

ثمَّ تأتي سورة القلم وهي السورة الرابعة في ترتيب النزول، فيقسم الله -سبحانه- في مفتتحها بالقلم، الذي امتنَّ في مطلع سورة العلَق بتعليم الخلق به: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾، وأضاف إلى القلم نتاجه في سورة القلم: ﴿وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾، وأقسم على نفي الجنون عن خير العالمين وخاتم المرسلين: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [القلم: ٢]، أي: ما أنت بنعمة الوحي والرسالة التي أُرْسِلْتَ بها بمجنون، بل أنت صاحب الخُلُق العظيم، فكيف لمَنْ له مسكة من عقلٍ أن يتهم من أمره الله بالقراءة في أولى آيات وحيه، وهو الأمي الذي لا يقرأ، ثمَّ أمر هو -ﷺ- الناس بالقراءة، ودعاهم إلى العِلْم، وإلى تعلُّم الكتابة، كيف يتهم بمثل هذه التهمة؟! لكنه شأن هؤلاء المجرمين وسائر المكذِّبين مع أنبيائه أجمعين.

وقد ذكر مطلع الوحي: خلق الإنسان من العلق، ومن العلق يخلق الإنسان، وبالقلم يكتب ويتعلَّم، فإنسانية الإنسان لا تكون إلا بالخلق، ولا تتمُّ إلا بالتعليم، والقلم من أهمِّ وسائله.

وبين مطلع سورة العَلَق والسور الكريمة السابقة لحمةٌ، وتناسبٌ، وارتباطٌ من وجوهٍ عدَّةٍ، أهمها:

١- تتَّحد المطالع في كونها خطابًا للنبيِّ -ﷺ-، منها ما بدأ بالأمر، ومنها ما بدأ بالنداء الذي يعقبه أمر: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾، ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾، فالمخاطَب فيها واحدٌ هو رسول الله -ﷺ- ثمَّ مَنْ يتأتَّى خطابه، والمخاطِب فيها واحدٌ هو ربُّنا -سبحانه وتعالى-، وهذا من وجوه

التناسب والارتباط بين مطلع الوحي، والسور الكريمة التي تلته في النزول.

٢- تلتقي كذلك في ذكر اسم «الرَّبِّ» -سبحانه- في مطلعها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ ، ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾؛ وهذا يدلُّ على التربية الحكيمة، والتعهُّد الربَّاني من رب السَّماوات والأرض لهذا النبي ودعوته –عليه الصَّلاة والسَّلام- وفيها إشارةٌ إلى أنَّ الذي خلقك هو أعلم بك، فحين يضع لك دستورًا يقيم حركة حياتك، فإنَّما يضعه عن علمٍ، ويفصله عن حكمةٍ، فكيف يتأتَّى لنا أن نعدلَ عن اختياره إلى اختيار مخلوقه؟ فهو الذي خلقك، وهو الذي ينبغي أن تربَّى بمنهجه، وتقوم بدعوته، وتحيا بذِكْره ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

ثمَّ إنَّ صفة الربوبيَّة قد أقرَّ بها المشركون، ولا يجدون عنها محيصًا، فهم يقرُّون به ربًّا خالقًا رازقًا يحيي ويميت، لكنَّهم لا يؤمنون به إلهًا يستحقُّ وحده العبوديَّة؛ ولذا كان الألطف والأنسب أن يبدأ الوحي بالاسم الذي يدلُّ على التعهُّد، والتربية، والإيجاد، والإمداد، والهداية، والرَّشاد، ويؤمن به المشركون كذلك، ولعلَّك تلحظ التدرج في وصف الرَّبِّ –سبحانه- حسب النزول، فقال في مطلع الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ بإضافة ضمير المصطفى -ﷺ- إليه فحسب، وهكذا جاءت سورة المدثر ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، ثمَّ جاءت سورة المزمل ليقول فيها ربُّك: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾، فوصف نفسه سبحانه بأنَّه ربُّ المشرق والمغرب، وهذا من أدلَّة وحدانيَّته: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ؛ ولذا ينبغي أن تتخذه وحده وكيلًا، ثمَّ جاءت سورة الفاتحة فوصف ربُّنا نفسه في مطلعها بأنَّه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، والمشرق والمغرب والعالمين كلها من مفعول ﴿خَلَقَ﴾ الذي بدأت به آيات الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، فهو ربُّ العالمين، ولا يستحقُّ العبادة إلا الذي خلقها –سبحانه وتعالى-.

٣- كذلك كانت آيات الوحي من المحاور التي دارت حولها مطالع السور ومقاطعها، فآيات الوحي هي أعظم ما يقرأ العبد، وأكثر ما يحتاج فيه إلى الاستعانة بربِّه على فهمها، وتدبرها، والعمل بها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾، ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾، ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾، وهذا أيضًا من وجوه التناسب والارتباط بين هذه السور الكريمة.

٤- كذلك تجد الصبر حاضرًا في أكثر هذه المطالع تصريحًا، أو تلميحًا، حيث تكرَّر الأمر بالقراءة مرَّتيْن، وذكر العلم ثلاث مرَّاتٍ، كما خُتِمَت السورة بالنَّهي عن طاعة الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى، وبالأمر بالسُّجود والاقتراب، وكلها معانٍ عمادها الصَّبر، وهذا الأمر جاء صراحةً في سورة المدثر ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾، فأمر بالصَّبر على تكبيره وتعظيمه، وبالصَّبر على القراءة باسمه، وعلى العلم، والقلم، ثمَّ جاء الأمر في مطلع المزمل بالصَّبر على نوعٍ من أنواع الأذى الذي يلقاه الداعي في سبيل نشر دعوته، وإنذاره: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠﴾، وأشار -كذلك- إلى أمر الصَّبر في مطلع سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤﴾، ففيها الإشارة إلى صبره على ترك طاعة الحلَّاف المهين الهمَّاز المشَّاء بنميم، كما ختمها بأمره -ﷺ- بالصَّبر: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، فالصَّبر من العلائق والخيوط التي ربطت بين مطالع هذه السور الكريمة ومقاصدها.

٥- والصَّلاة كذلك من الموضوعات التي جمعت بين هذه السور، ففي سورة العَلَق تقرأ: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، وفي آخرها: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ۝١٩﴾، وفي مطلع المزمل كذلك يأمره -ﷺ- بقيام الليل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾، وكلاهما خطاب للنبي -ﷺ-، وجاء في آخر سورة المدثر حديث أهل النَّار لما سُئِلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ ، وكذلك في آخر سورة القلم يذكر لنا ربُّنا حال أولئك الذين يُدْعَوْن ﴿إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾، تأمَّل قوله سبحانه: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾، ثمَّ تأمَّل في رابعة السور نزولًا حال أولئك الذي امتنعوا عن السجود وهم سالمون، فكيف بمَنْ امتنع، ونهى النَّاس عن الصَّلاة، وحاربهم في دينهم، لا شكَّ أن عاقبته اشدُّ وأنكى.

٦- كما قدَّمت لنا السور الكريمة مقابلةً بين نموذجَيْن جاءهم الهدى، فمنهم مَنْ أقبل عليه، ومنهم مَنْ استحبَّ العمى على الهدى، منهم مَنْ أكرمه الله ومنَّ عليه بالعمل والهداية، فصار على الهدى، وأمر بالتَّقوى، ومنهم مَنْ كذَّب، وتولَّى، وطغى، واستغنى، منهم مَنْ آمن بالوحي، وسار في طريق ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، ومنهم مَنْ ﴿أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾، وقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، منهم مَنْ قام الليل، وتحمَّل أعباء الرسالة والسبح الطَّويل، والقول الثَّقيل، ومنهم المكذبون أولو النعمة، منهم مَنْ سار على خطى صاحب الخُلُق العظيم، ومنهم مَنْ قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، منهم السَّاجد المقترب، ومنهم الطَّاغي الذي صدَّ النَّاس عن الصَّلاة، الذي يُدْعى يوم القيامة إلى السُّجود فلا يستطيع، وتلك حكمة أحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين؛ لتجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، كيف نسوّي بين مَنْ أقبلوا على الهدى، فأنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل، والدَّعوة إلى الله، وبين مَن اختار ضراط المغضوب عليهم والضَّالين؟!.

وهذه النماذج المتقابلة في السور الكريمة هي وجهٌ من وجوه الارتباط، والتَّناسب الذي بينها أيضًا.

هـ- تناسب المطلع مع سورة الفاتحة:

سورة الفاتحة هي خامسة السور نزولًا، وتبدو المناسبة بينها وبين مطلع الوحي جدّ عميقة؛ فسورة الفاتحة هي أمُّ الكتاب، جمعت أصول الدِّين ومبادئه الكليَّة، التي يجب أن يؤمن بها مَنْ خلقه الله من علقٍ، وعلَّمه بكرمه ما لم يعلم، كما ذكرت الرسالة التي خلقنا لها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا

كانت الفاتحة أمَّ القرآن، فمطلع العلق هو عنوان القرآن؛ لأنَّه اشتمل على مقاصد القرآن في عبارةٍ وجيزةٍ، وبيان كونه اشتمل على مقاصد القرآن أنَّها تنحصر في علم التوحيد، والأحكام، والأخبار، وقد اشتملت على الأمر بالقراءة والبداءة فيها باسم الله، وفي هذا الإشارة إلى الأحكام، وفيها ما يتعلَّق بتوحيد الرَّبِّ، وإثبات ذاته وصفاته، من صفة ذاتٍ، وصفة فعلٍ، وفي هذا إشارة إلى أصول الدِّين، وفيها ما يتعلَّق بالأخبار من قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(١).

فمفتاح معاني أمِّ القرآن هو أن تقرأها باسم ربِّك الذي خلق، والقراءة باسم ربِّك هي مفتاح باب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؛ لأنَّ العبادة والاستعانة لا بُدَّ أن تكون مبنيَّةً على علمٍ وهدى، وهو ما بدأ الوحي بأمر النبي -ﷺ- وأمته به: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، ودعا أيضًا بالهداية إليه في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، أي: صراط القرآن الكريم، كتاب الإسلام العظيم.

وكذلك تحدث مطلع الوحي الشَّريف عن أعظم مظاهر الربوبيَّة، وهي الخلق، والتَّعليم، والهداية؛ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، وبدأت سورة الفاتحة بالحمد على هذه النعم، وكأنَّ العبد إذا استشعر فيض الربوبيَّة، وقرأ مستعينًا بربِّه، نطق بلسان حاله ومقاله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، الحمد لله الذي خلق، وعلَّم، وأكرم؛ فقد منَّ علينا بنعمة الإيجاد، والإمداد، والهداية، والرَّشاد، وتلحظ أنَّ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي بيان لمفعول ﴿خَلَقَ﴾ المحذوف في سورة العلق.

وبعد أن وصف نفسه -سبحانه- بأنَّه ربُّ العالمين، جاء قوله –عزَّ وعلا-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، والوحي الذي مفتتحه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هو أعظم مظاهر رحمته التي يقيم به حركة الخلق وَفْق مراده، ويهدي مَنْ قرأ باسمه، وسار على هَدْيِه في الدنيا إلى الصِّراط المستقيم، وفي الآخرة إلى صراط النعيم المقيم، فهذا الذي قرأ باسم ربِّه، تصحبه رحمة الله في مسيره ومصيره.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: ج٨ صـ١٧٩.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: إليه وحده الرُّجعى؛ لأنَّه مالك يوم الدِّين، يوم الفصل الذي سترى فيه ﴿كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾، سترى جزاء هذه النماذج المتقابلة التي تكرَّر ذِكْرها في سورة العَلَق، والمدثر، والمزمل، والقلم، وهم أهل الصِّراط المستقيم، والمغضوب عليهم والضَّالون.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾: وتلك هي الرِّسالة التي خُلِقْنا لها، العبادة مستعينين به فيها، وهذه العبادة والاستعانة مفتاحها الذي ينير دروبها وشعابها هو العِلْم، وأصله العلم بالله تعالى، فمفتاح العبادة والاستعانة يبدأ من ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾: هو صراط العزيز الحميد -سبحانه وتعالى- وباب الصراط هو الوحي، ومفتاح الوحي هو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فلا يسير المؤمنون في الصراط إلا على علمٍ وهدى، مفتاح بابه هو ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وتدبَّر، واعمل بالوحي، وسر على بصيرةٍ، كذلك ميَّز الله هذا الصِّراط بأنَّه المستقيم، غير صراط المغضوب عليهم والضَّالين، وهذا أيضًا بابه العلم الذي بيَّن سمات ومزايا الذين أنعم الله عليهم، ومفتاحه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾.

كما تلحظ أنَّ مطلع العَلَق قد بدأ بالعلم: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وانتهت السورة بالعمل: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾، وهذا يعني: أنَّ جماع الأمر علمٌ وعملٌ، وهذا هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين، والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين؛ لأنَّ العلم بلا عملٍ هو صراط المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحقَّ، لكنَّهم جحدوه ظلمًا وعُلُوًّا، وصراط العمل بغير علمٍ هو صراط الضَّالين ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۝١٠٤﴾، أمَّا العلم والعمل فهو جماع سمات الصِّراط المستقيم.

وهكذا ترى بين مطلع الوحي وبين سورة الفاتحة لحمةً وشبكةً وتناسبًا يتجلَّى في تفاصيل الآيات ومعانيها.

و- تناسب المطلع مع سورة البقرة (أول ما نزل بالمدينة):

سورة البقرة هي أوَّل ما نزل من القرآن بالمدينة المنوَّرة، ويبدو التَّناسب والاتصال بين المطلعين جدّ وثيق، يمكن أن تلحظ هذا التَّناسب بين قوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وبين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، أي: القرآن، فقراءة هذا الكتاب الذي لا ريب فيه، هي أعظم ألوان القراءة التي تهدي إلى التَّقوى وإلى الصراط المستقيم، كما ترى التَّناسب أيضًا بين ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، وبين ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والقرآن من أسمائه أيضًا: «الكتاب»، وهو كذلك مكتوبٌ في اللوح المحفوظ بالقلم الذي كان أوَّل ما خلق الله، قال له: اكتب، ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

ثمَّ إنَّ العلم سبيل الهداية، والتعليم يثمر هداية دلالة وإرشاد، وهي السَّبيل إلى هداية التَّوفيق والسَّداد بإذن الله، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾، وعلاقتها بـ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ فالعبد إذا قرأ هذا الكتاب، مستعينًا بربِّه على فهمه، وتدبره، والعمل به، صار الكتاب هدى؛ لأنَّه صار من المتَّقين.

قال سبحانه: بـ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، ولعلَّك تلحظ أنَّ التَّقوى أيضًا كانت صفة تحدَّث الله بها عن نبيِّه في سورة العلق: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢﴾، فالآية تتحدَّث عن أمر النبي للعباد بالتَّقوى، وجاء الحديث في مطلع البقرة عن المتَّقين الذين امتثلوا أمر الله ورسوله لهم بالتَّقوى، كما تجد من صفات المتَّقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، وهذا الإيمان بالغيب ثمرةٌ من ثمرات قراءة الكون والوحي باسم الله، فإنَّ تدبُّر صفحات الكون ناطقٌ بعظمة ربوبيَّة الواحد الذي يدبِّر هذا الكون، فكأنَّ خلق الكون، وخلق الإنسان، يهدي إلى الغيب الأعظم، وهو الله سبحانه، ويهدي إلى ضرورة الحساب؛ لأنَّه لم يخلق هذا كلَّه باطلًا، تعالى سبحانه عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وهذه من سمات المتَّقين، وهو يذكرك بعبدٍ كان يصلِّي ويأمر النَّاس بالتَّقوى في سورة العلق: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ

﴿١٠﴾، كان الحديث عن عبدٍ يصلِّي في سورة العَلَق، والآن صارت إقامة الصَّلاة من أبرز سمات المتَّقين في أمَّته، فهم يوفون الصَّلاة حقَّها في القراءة، والرُّكوع، والسُّجود، والخشوع، ثمَّ يأتي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾، إنَّهم آمنوا بما أمرت بقراءته باسم ربِّك الذي خلق، لقد قرأت وأمرت بالقراءة باسم ربِّك، وها هي الثمرة تراها حين ترى أصحابك لا يقرؤون فحسب، بل يؤمنون بما أنزل إليك، وقد قال سبحانه هناك: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وقال هنا: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ بالبناء لغير الفاعل، وذلك للعلم به، والتركيز على الصفة وهي الإيمان بما أنزل إليك.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾: تجد في سورة العَلَق إخبارًا بأنَّ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾، وتجد هنا يقينًا بالآخرة، وهذا الإيمان واليقين هو ثمرة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، وقد اشتملت سورة البقرة على أدلَّةٍ كثيرةٍ على البعث، والآخرة، والرُّجعى، مثل: قصَّة البقرة، وقصَّة الطَّير، وقصَّة الذي مرَّ على قريةٍ، وقصَّة إماتة بني إسرائيل ثمَّ بعثهم، وغير ذلك ممَّا يزيد القلب يقينًا بالآخرة.

ثمَّ تأتي خاتمة صفاتهم في مطلع البقرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾، هذا الهدى بدأ بـ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، وهو يذكرنا -كذلك- بخاتمة العَلَق: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾، فترك الباطل، والسُّجود للحقِّ سبحانه، والاقتراب منه هو الهدى والفلاح الذي ختم الله به حديثه عن صفات المتَّقين في مطلع سورة البقرة.

ومن ألوان التَّناسب بين مطلع العَلَق وسورة البقرة: أنَّ الله -سبحانه- قال في مطلع العَلَق: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾، ورأينا في سورة البقرة أوَّل نموذجٍ لتعليم الإنسان وهو آدم أبو البشر -عليه السلام- الذي علَّمه الله -سبحانه وتعالى-، وقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، وممَّا يلفت أن الله -سبحانه وتعالى- ذكر الإنسان في سورة العَلَق ثلاث مرَّاتٍ، بينما لم يرد ذكر «الإنسان» في سورة البقرة على طولها، وإنَّما ذكر فيها لفظ «النَّاس» ستًّا وعشرين مرَّة، ولفظ «الإنسان» وإن كان معناه الجمع،

لكن لفظه مفرد، والإفراد والجمع من السِّمات الأسلوبيَّة الفارقة بين مطلع العَلَق ومطلع البقرة، فالخطاب في مطلع العَلَق موجَّه كله إلى النبي -ﷺ- ولكلِّ مَنْ يتأتَّى خطابه بصيغة المفرد ﴿رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، كذلك الحديث عن الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، بينما يغلب الحديث بصيغة الجمع في مطلع البقرة، والحديث فيه عن المتَّقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، ولعلَّ ذلك يتناسب مع وقت وملابسات النزول، ففي مطلع الوحي كان النبي -ﷺ- وحده هو الذي ينزل عليه الكتاب، فوجّه الخطاب إليه أوَّلًا، وإن صحَّ توجهه لكلِّ مَنْ يتأتَّى خطابه من بعده -ﷺ-، أمَّا في المدينة فقد صارت للإسلام قوَّةٌ، وللدَّعوة أنصار وجنود، يضحُّون في سبيلها بأموالهم، وأنفسهم، فكان الحديث عنهم بخطاب الجمع هو الأنسب، لكن بقي الحبيب المصطفى متفردًا في قلوبهم، فكان من سمات هؤلاء المتَّقين أنَّهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

ومن وجوه التَّناسب -كذلك-: ما تراه في الآيات التي تلي المطلعَيْن الكريميْن من ذكر النماذج المتقابلة، تجد بعد حديث الإنسان الذي خلقه الله، وعلَّمه، وأكرمه، حديثًا عن الذي طغى واستغنى، ونهى عبدًا إذا صلَّى، وكذلك ترى في مطلع البقرة حديثًا عن المتَّقين، يليه حديثٌ عن الذين كفروا، وأنَّهم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾؛ لأنَّهم طغوا واستغنوا، وختم الله على قلوبهم، وسمعهم، وأبصارهم.

ومن ألوان التَّناسب أيضًا: أنَّ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ هو أوَّل أمرٍ نزل في مكَّة، وعلى الإطلاق، وأوَّل أمرٍ في سورة البقرة هو قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١].

ويبدو التَّناسب بين الأمريْن من وجوهٍ عدَّةٍ، منها:

- أنَّ قراءة كتاب الكون وكتاب الوحي باسم الله هو عبادة موصلة للتَّقوى، فإذا قرأت باسم ربِّك، فقد سلكت طريقًا ينتهي بك إلى التَّقوى.

- ثمَّ إنَّ العبادة لا بُدَّ أن تكون مبنيَّةً على علمٍ؛ ولذلك جاء: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أوَّلًا، ثمَّ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ ثانيًا، فإنَّ العبد إذا قرأ باسم الله، مستعينًا به، يبتغي الوصول إليه، انتهى به الطَّريق أن يكون ممَّن عبدوا ربَّهم حقًّا لعلَّهم يتَّقون.
- ولعلَّك تلحظ المشترك بين الآيتيْن: ﴿رَبِّكَ﴾، ﴿رَبَّكُمُ﴾، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾، فذكر ربوبيَّته وخالقيَّته التي هي أظهر مظاهر الربوبيَّة القاضية بأنَّه وحده الذي يستحق العبادة، ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: ١٧]، والإفراد والجمع في الآيتين يرجع للمعنى الذي ذكرناه آنفًا.
- وذكر ربُّنا من صفاته في الآية التالية أنَّه ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذا كلُّه تفصيلٌ لقوله سبحانه في مطلع العَلَق: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وهي أيضًا تشير إلى أنَّ قراءة هذه المخلوقات باسم الله تفضي بالعبد إلى الإيمان، والتَّقوى.
- وقد أمر الله في هذه الآية جميع النَّاس بعبادته، وترك الشِّرك به، وسورة العَلَق تبيِّن انقسام النَّاس أمام هذه الآية إلى قسميْن: عباد متَّقين، وطغاة كافرين، كما بيَّنت بعض مظاهر العبادة، وأمرت بمعانٍ تقابل مواقف الذين لا يستجيبون لأمره، فقد أمرت بقراءة كتاب الكون والوحي باسم الله، ونهت عن طاعة الكافرين، وأمرت بالسُّجود والتقرُّب إلى الله، وهذا التَّقسيم هو الذي بدأ به مطلع سورة البقرة، حيث قسمت النَّاس إلى مؤمنٍ، وكافرٍ، ومنافقٍ، وأضافت أنَّ الذين كفروا يستوي عندهم الإنذار وعدمه؛ لأنَّ الله ختم على قلوبهم، وسمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة(١).

ومن ألوان التَّناسب بين مطلع سورة العَلَق وسورة البقرة: أنَّ آخر ما نزل من القرآن هو قوله -سبحانه- من سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]، والتَّناسب واضحٌ بينهما؛ فإنَّ اتقاء هذا اليوم يقتضي أوَّلًا العلم به وبأهواله،

(١) الأساس في التَّفسير، سعيد حوَّى: ج١١ صـ٦٦٠٨.

ويقتضي كذلك الإيمان به، وهو ما بدأت به سورة العَلَق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ثمَّ إنَّ الآية تأكيدٌ لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾، وكأنَّ المعنى: إنَّ إلى ربِّك الرُّجعى، فاتَّقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله، واستجيبوا لله ورسوله، عليكم بقراءة كتابه مستعينين به في فهمه، وتدبره، والعمل بما فيه؛ فإنَّه الصراط المستقيم في الدنيا، وصراط النَّعيم المقيم في الآخرة، وفيها تهديدٌ ووعيدٌ لكلِّ مَنْ طغى، واستغنى، وكفر بالرُّجعى، ووعد لكلِّ مَنْ آمن وكان على الهدى وأمر بالتَّقوى.

ز- تناسب المطلع مع مطلع سورة الرَّحمن:

كثيرًا ما جمع القرآن بين نعمتي: الخلق والهداية، كما ترى هنا في مطلع السورتين الكريمتين، وهذا أمر بيَّناه آنفًا، لكنا نلحظ في سورة «الرَّحمن» تصدر اسم الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أوَّلًا، ثمَّ تقديم التَّعليم على الخلق، بينما توسَّط اسم الله ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بين النعمتين في سورة العَلَق، وتقدَّم الخلق على التَّعليم، فالخلق في سورة «الرَّحمن» محاطٌ بـ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾، ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾، وفي سورة العَلَق محاط بقراءتين: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾.

والخلق مقدَّم على تعليم القرآن بالنسبة للإنسان، فتقديمه هو الأصل، ثمَّ إنَّ قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ عام يتناول جميع المخلوقات من السَّماوات، والأرض، والجن، والإنس، والطَّير، والجنَّة، والنَّار؛ ولذا كان تقديمه هو الأصل، وهو ما جاء في أوَّل الآيات نزولًا، وفي سورة الرَّحمن تقدم تعليم القرآن على خلق الإنسان؛ للإشارة إلى أهمية القرآن لهذا الإنسان؛ لأنَّ حياته بغير منهج يقيم حياته وَفْق مراد ربِّه، ويأخذ بيده إلى النَّعيم المقيم هي حياة أفضل منها حياة الأنعام، فالتَّقديم -هنا- لبيان عظيم أثر القرآن، وهو أثر لا ينال إلا المؤمنين المتَّقين، أمَّا الخلق فهو نعمة يستوي فيها التقي والفاجر، والجن والإنس، بل الأنعام أيضًا تشملها نعمة الخلق.

وهذا التَّعبير: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾ لم يرد في القرآن إلا مرَّةً واحدةً، كما إنَّ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ لم يرد بصيغة الجمع ﴿عَلَقٍ﴾ إلا مرَّة واحدةً، وكذلك

اسمه ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾، فالأكرم خلق الإنسان من عَلَقٍ، وعلَّمه القرآن، وعلَّمه ما لم يكن يعلم.

وصدر سورة العَلَق هو أوَّل ما نزل من القرآن، فلم يكن القرآن قد نزل بعد، حتى يمتنَّ الله بتعليمه الإنسان، وأقرب شيءٍ إلى الإنسان هو نفسه، والكون من حوله؛ ولذا قدَّم سبحانه الخلق على التَّعليم في مطلع العَلَق، أمَّا سورة «الرَّحمن» فهي من أواخر السور نزولًا، فقد نزل المنهج، وارتسمت معالمه ومقاصده، فتقدَّم ذكره على الخلق في إشارةٍ إلى أهميته، وعظيم أثره، وأنَّ هذا المخلوق من عَلَقٍ إذا لم يقرأ كتاب ربِّه مستعينًا به ليقيم حياته على مراد الله، فهو ميت على قيد الحياة.

ثمَّ إنَّ البيان الذي علَّمه الله الإنسان نطقيٌّ، وخطيٌّ، وكلاهما قد جاء في مطلع سورة العَلَق منصوصً عليها، فالنطقي في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، والخطي في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾، وكلاهما مضمَّن في قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ في سورة الرَّحمن.

وما أجمل ما ذكره العلَّامة محمود شاكر في الرَّبط بين هذه الآيات، وبين قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، **يقول الشيخ**: «إن شئت تدبر هذه الآية: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾، ثمَّ هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العَلَق، ثمَّ هذه الآية: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، آيات ثلاثٌ فيها الحديث عن خلق الإنسان وإنشائه، ويقترن بذكر «الخلق» ذكر «البيان»، و«الأسماء»، و«القلم»، وتأمَّل قوله سبحانه: ﴿عَلَّمَ﴾ في ثلاثتهنَّ، فسترى الخبر الصَّادق يلوح كأنَّه نورٌ ساطعٌ يكشف عن حقيقة هذا الإنسان، التي طمستها القرون، وعسى أن تقول معي: لولا البيان، لخرب هذا البنيان»(١).

ح- تناسب المطلع مع سورة النَّصر (آخر سور القرآن نزولًا):

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدَّم لها: د/ عادل سليمان، ط. مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، د. ت: ج٢ صـ١١٦٢.

كما كان مطلع الوحي خطابًا مباشرًا للنبي -ﷺ-، فقد كانت آخر سور القرآن نزولًا خطابًا أيضًا للحبيب -ﷺ-: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ﴾، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾، كانت بداية القرآن أمرًا بالقراءة باسم الله، وجاءت خاتمته بحديث النَّصر والفتح، في إشارةٍ إلى أنَّ القراءة باسم الله هي باب النَّصر وطريقه، وقد كان؛ فالله -سبحانه- قد أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه، فغاية الإرسال هي إظهار دين الله؛ ولذا تبدو المناسبة واضحةً، فالقراءة مفتاح باب العلم، وطريق النَّصر، وبناء الحضارة، والأخذ بيد الخلق إلى الحق –سبحانه وتعالى وبحمده-.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾: على قراءة القرآن باسم الله، وعلى إكرامه بإظهار دينه، سبّح بحمده على فتحه ودخول النَّاس في دين الله أفواجًا، تذكَّر يوم أن قال لك: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، والآن يدخل النَّاس في دين الله أفواجًا بالعلم، والعمل، والدَّعوة، والصَّبر على الأذى، فهو سبحانه الأكرم، الذي له كمال الأكرميَّة في خلقه وتعليمه، وربوبيَّته لك ولأمَّتك، التي كتب لها النَّصر حين استمسكت بهداه، وتفانت في رضاه، ومن كمال أكرميَّته أنَّ بابه مفتوح لكلِّ عائد وتائب، إنَّه هو التوَّاب الرَّحيم.

ط- تناسب المطلع مع المقصود الأعظم للقرآن الكريم وحكم تنزيله:

«للوحي بيانًا وتبيينًا مقصد كلي متعين هو هداية العباد على اختلاف درجاتهم إلى الصِّراط المستقيم في إخلاص العبادة، وإخلاص الاستعانة؛ ليكونوا بحقٍّ عباد الرَّحمن، ومن ثمَّ كان بيان الوحي جامعًا لما فيه من تحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم»(١).

هذا مقصود الوحي الأعظم، فقل لي بربِّك أتكون هداية بغير قراءة، هذا الهدي الإلهي، وتدبر معانيه، ودلالاته، ومقاصده، وأغراضه، وحكمه، وأسراره؟ فمفتاح الهداية إلى الصراط المستقيم هو: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ

(١) سبل الاستنباط من الكتاب والسُّنَّة دراسة منهجيَّة تأويليَّة ناقدة، د/ محمود توفيق سعد، ط. مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م: صـ٦١.

﴿١﴾، والقراءة وحدها تهدي هداية دلالة وإرشاد، وقد لا تستلزم دخول باب الصراط المستقيم، لكن القراءة باسم ربّك مستعينًا به، راجيًا هدايته هي مفتاح باب الصراط المستقيم، والسَّير فيه على هدى ونور.

وكذلك حين تقرأ الآيات القرآنيَّة التي تذكر حِكَمَ نزول القرآن، تجد الصِّلة والمناسبة جدّ عميقة ووثيقة، اقرأ -مثلًا- قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

فالتدبر، والفَهْم، والاستنباط، والوقوف على خفي الدلالات، ودرر الاستنباطات، وبديع الحِكَم والمناسبات، والخروج من ظلمات الجهل، والشِّرك، والاضطراب في القِيَم، والأخلاق، والعقائد، والتَّصورات، وبيان المختلف فيه، والهداية إلى صراط العزيز الحميد، هذا وغيره كثيرٌ لا يفتح بابه إلا بـ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾، ومن أجل هذا كان أوَّل أمرٍ في القرآن هو: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وكان أشهر أسماء الذِّكْر الحكيم هو «القرآن» اقرأ باسم ربك القرآن الذي يخرج النَّاس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، فأيُّ تناسب أوضح وأجمل من هذا؟!

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين حمد الشَّاكرين، والصَّلاة والسَّلام على خير مبعوثٍ إلى خير أمَّةٍ بخير دينٍ، وعلى آله وصحبه والتَّابعين.

وبعد:

فقد صحب البحث مطلع الوحي الشَّريف في قراءةٍ بلاغيَّةٍ، حاولت فَهْمه، وتدبر معانيه، وتذوق بلاغته العليَّة، كما بذل طاقته في استبصار ألوان المناسبات المتعلقة بالمطلع الشَّريف في سياقاته المختلفة، من سياق نصّيٍّ، أو سياقٍ ترتيلي، أو سياقٍ تنزيلي، أو غير ذلك من المناسبات التي وقف عندها البحث.

وكان من أبرز ثمرات البحث:

١- أنَّه جلَّى أهمية المطلع الشَّريف في بناء الإنسان، وإقامة البنيان الحضاري على هدى ونورٍ؛ ذلك أنَّ المطلع هو مفتاح باب النور، الذي يهدي في الدنيا إلى الصِّراط المستقيم، وفي الآخرة إلى النَّعيم المقيم، فقراءة آيات الكون وآيات الوحي باسم الله هي باب الدِّين، والأساس الذي بُنِيَت عليه حضارة خير أمَّة أخرجت للنَّاس، ومفتاح إعادة نهضتها وعودتها إلى تصدر المشهد الحضاري، وعلى الرّغم من قلَّة عدد آياته فقد جمع مقاصد القرآن، حتَّى سمَّاه بعضهم: «عُنوان القرآن»، كما حدَّد المطلع الجهة التي يتطلَّع إليها الإنسان ويتلقَّى عنها تصوراته، وقِيَمه، وأخلاقه، وعقائده، وأفكاره، وبيَّن أنَّ تلك القراءة الرَّاشدة هي السَّبيل لإحياء الأرض بعد موتها، والقلوب بعد خرابها.

٢- أظهر اتِّساع دلالات ألفاظ ومعاني المطلع الشَّريف، وامتدادها امتدادًا يتجاوز حدود الزَّمان، والمكان، فلا تجد فيه ذِكْرًا لعربيٍّ، ولا عجميٍّ، ولا ذَكَرٍ، ولا أُنثى، إنَّه الإنسان في عمومه، فهو مطلع مؤذنٌ بعموم الرِّسالة، وأنَّ هدفها هو هداية الإنسان إلى ربِّه الخالق –عزَّ وعلا–، وآيات المطلع تدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ القرآن كلام الله تعالى؛ لأنَّ أولى هداياته كانت تلك النفحة الربَّانيَّة للسموِّ بالإنسان، وذلك بأن أنعم عليه بنعمة الخلق، ونعمة العِلْم.

٣- جاء المطلع نموذجًا حيًّا لبيان قيمة السِّياق، وأثره في تحديد الدلالات، وتوجيه حركة المعنى، وترجيح بعض الوجوه على بعضٍ، وبيان سرِّ اصطفاء بعض المفردات، وظهر ذلك في مواطن كثيرةٍ من البحث، كما في تحديد دلالة «قرأ»، و«خلق»، و«علق»، وسرّ التعبير فيها بالجمع، وفي بيان سرّ اصطفاء اسم «الرَّبّ»، و«الأكرم»، وغير ذلك من الألوان التي أكَّدت أنَّ السِّياق هو قاضٍ مسموع الكلمة، نافذ البيان.

٤- كما جلَّى البحث ألوانًا من المناسبات في المطلع الشَّريف، تجاوز حدود الدائرة التي يتحرَّك فيها علماء المناسبات، فقد وقف البحث على ألوان التَّناسب المعهودة عند العلماء، ثمَّ تجاوز ذلك إلى تناسب المطلع مع وقت النزول، وفطرة النفوس، ومع المقصود الأعظم للقرآن الكريم، وخاتمة نزوله، وفي السِّياق التنزيلي تجاورت حدود السورة السابقة واللاحقة إلى عدَّة سورٍ، تربطها علائق ومناسباتٌ، وذلك كما بيَّنَّا في تناسب المطلع مع سورة «المدثِّر»، و«المزمِّل»، و«القلم»، و«الفاتحة»، وغير ذلك من ألوان المناسبات التي وقف عندها البحث.

وبعد ذلك فلستُ أدَّعي أنِّي بلغت الغاية في الوفاء بحقِّ الموضوع، وإنَّما هي محاولة جادَّة بذلت وسعها، واستفرغت طاقتها في قراءة مطلع الوحي بلاغة، ومناسبات، وأدعو الله -سبحانه- أنْ يغفرَ ما زلَّ به اللسان والقلم، وأن يرحم ضعفي وتقصيري، وهو حسبي ونِعْم الوكيل.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، د. ت.
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، للإمام أبي السعود العماري، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ه= ١٩٩٩م.
٣- الأساس في التفسير، سعيد حوَّى، ط. دار السَّلام، الطبعة السادسة، ٢٠٠٣م.
٤- إشراقات قرآنيَّة، د/ سلمان العودة، مؤسَّسة الإسلام اليوم للنشر، الطبعة الثانية ١٤٣٣ه= ١٩٩٤م.
٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للإمام الشنقيطي، ط. دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه= ١٩٩٦م.
٦- الإعجاز البياني في القرآن الكريم في سورة العَلَق، د/ محمد مبارك المزيودي، من منشورات دار المنظومة، د. ت.
٧- «اقرأ» دراسة دلاليَّة نحويَّة، د/ جبر محمد عبد الله، مجلة الملتقى المعرفى– المغرب، عدد (٢٣) لسنة ٢٠١٠م.
٨- اقرأ وربُّك الأكرم، جودت سعيد، ط. دار الفكر المعاصر- بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ه= ١٩٩٣م.
٩- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، لابن عجيبة، د. ط، د. ت.

١٠- البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، ط. وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميَّة، المغرب، ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م.
١١- بيان المعاني، للملا علي حويش، مطبعة الترقي، ١٣٨٢هـ.
١٢- التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، ط. دار سحنون، د. ت.
١٣- التصوير الفني في القرآن، سيِّد قطب، ط. دار الشروق، الطبعة الرابعة عشر، د. ت.
١٤- التفسير البياني للقرآن، د/ عائشة عبد الرحمن، ط. دار المعارف، الطبعة الخامسة، د. ت.
١٥- تفسير جزء عمَّ، لفضيلة الشيخ الشعراوي، ط. دار الراية للنشر، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م.
١٦- التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ط. دار إحياء الكتب العربيَّة، ١٣٨٦هـ= ١٩٦٢م.
١٧- تفسير سورة العَلَق، د/ فضل حسن عباس، مجلة هدى الإسلام، الأردن، م١٢، عدد ١٠ شهر يناير ١٩٦٩م.
١٨- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق: طه عبد الرؤف، ط. مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.
١٩- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ط. دار الفكر العربي، د. ت.
٢٠- التفسير الكبير، للإمام ابن تيمية، تحقيق: د/ عبد الرحمن عميرة، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت.
٢١- التفسير الموضوعي لسور القرآن، إعداد: نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ.د/ مصطفى مسلم، جامعة الشَّارقة، ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م.
٢٢- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، للفيروز آبادي، ط. دار الفكر- بيروت، لبنان د/ ت.
٢٣- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، صبطه وعلَّق عليه: د/ محمد إبراهيم، ود/ محمود حامد عثمان، ط. دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
٢٤- الجمع بين القراءتين الوحي والكون، د/ طه جابر العلواني، ط. دار الشروق، ٢٠٠٥م.
٢٥- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقدَّم لها: د/ عادل سليمان، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
٢٦- حاشية الشيخ زادة على تفسير الإمام البيضاوي، تعليق: محمد عبد القادر، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت.

٢٧- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، عصام الدين إسماعيل الحنفي، ضبطه: عبد الله محمود محمد، ط. دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه= ٢٠٠١م.
٢٨- دراسات منهجيَّة في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، د. ت.
٢٩- دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ه= ١٩٩٢م.
٣٠- رؤية إسلاميَّة، د/ زكي نجيب محمود، ط. دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤١٤ه= ١٩٩٣م.
٣١- سبل الاستنباط من الكتاب والسُّنَّة دراسة منهجيَّة تأويليَّة ناقدة، د/ محمود توفيق سعد، ط. مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ه= ٢٠١١م.
٣٢- سورة العَلَق، للسيد جواد الرضوي، مجلة الهدى، تصدر عن دار الهدى للثقافة والإعلام، د. ت.
٣٣- سورة العَلَق قراءة بلاغيَّة، د/ أحمد فتحي رمضان، مجلة آداب الرافدين- العراق، عدد (٦٨) لسنة ٢٠١٣م.
٣٤- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، شرف الدين الطيبي، د/ عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧ه= ١٩٩٧م.
٣٥- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيِّم، تحقيق: محمد بدر الدين، ط. دار الفكر- بيروت، ١٣٩٨ه.
٣٦- الصبغ البديعي في اللغة العربيَّة، د/ أحمد موسى، ط. دار الكتاب العربي، ١٣٨٨ه= ١٩٦٩م.
٣٧- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز، ومحب الدين الخطيب، ط. دار الفكر- بيروت، د. ت.
٣٨- فتح المُنْعِم شرح صحيح مسلم، د/ موسى شاهين لاشين، ط. دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ه= ٢٠٠٢م.
٣٩- في ظلال القرآن، سيِّد قطب، طبعة: دار الشروق، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٠٨ه= ١٩٨٨م.
٤٠- قراءة في صدر سورة العلق، أمين الدميري، مجلة البيان، عدد (٣٤٥)، جمادى الأولى ١٤٣٧ه= ٢٠١٦م.
٤١- الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، للإمام الزمخشري، ط. دار الريَّان للتراث، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ه= ١٩٨٧م.
٤٢- الكلمة نورٌ، د/ محمود توفيق سعد، ط. مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ه= ٢٠١٧م.

٤٣- لباب التأويل ومعاني التنزيل، علاء الدين البغدادي، ط. دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ه= ١٩٧٩م.
٤٤- اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي الدمشقي، ط. دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩ه= ١٩٩٨م.
٤٥- لسان العرب، لابن منظور الإفريقي، د. دار صادر، الطبعة الأولى، د.ت.
٤٦- مجاز القرآن، لأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنَّى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، د. ت.
٤٧- مجلة البيان، مجلة تصدر عن المنتدى الإسلامي- خصائص المرحلة المكيَّة في مجال المعرفة، د/ محمد محزون، عدد (١٢٢).
٤٨- مجموع الفتاوى، للإمام ابن تيمية، ط. دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية ١٤١٩ه= ١٩٩٨م.
٤٩- محاسن التأويل، للإمام محمد جمال الدين القاسمي، ضبطه وصحَّحه: محمد باسل عيون، منشورات محمد علي بيضون، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت.
٥٠- محاولة لدراسة سورة العَلَق، للشاهد البوشيخي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة بجامعة سيِّد محمد بن عبد الله بفاسر، عدد خاص ١٩٩١م.
٥١- المحرر الوجيز في لطائف الكتاب العزيز، لابن عطيَّة الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتاب- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ه= ٢٠٠٠م.
٥٢- محمدٌ رسول الله منهج ورسالة، محمد الصادق عرجون، ط. دار القلم بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م.
٥٣- المختار من كنوز السُّنة شرح أربعين حديثًا في أصول الدِّين، د/ محمد عبد الله دراز، ط. دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٣٠ه= ٢٠٠٩م.
٥٤- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د/ محمد محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه= ١٩٩٢م.
٥٥- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، للإمام البقاعي، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه= ١٩٨٧م.
٥٦- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن بن حبنَّكة، ط. دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ه= ٢٠٠٠م.
٥٧- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القران الكريم، د/ محمد حسن جبل، ط. مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
٥٨- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار المعرفة- بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤١٤ه= ١٩٩٤م.

٥٩- مفاتيح الغيب، للإمام الرازي، تقديم: خليل محي الدين، ط. دار الفكر- بيروت، ١٤١٥ه= ١٩٩٥م.
٦٠- مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيِّم، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت.
٦١- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، د. ت.
٦٢- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، د. دار الكتب العلميَّة- بيروت.
٦٣- موسوعة أسماء الله الحسنى، د/ محمد راتب النابلسي، ط. دار المكتبي، الطبعة الخامسة، ١٤٢٩ه= ٢٠٠٨م.
٦٤- موسوعة صحيح فضائل سور القرآن، محمد رزق طرهوني، ط. دار ابن القيّم- السعوديَّة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ه.
٦٥- النبأ العظيم– نظراتٌ جديدةٌ في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ط. دار القلم، الطبعة التاسعة، ١٤٢٦ه= ٢٠٠٥م.
٦٦- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، للشيخ محمد الغزالي، ط. دار نهضة مصر، الطبعة الأولى، د. ت.
٦٧- نظرات في تفسير سورة العَلَق، د/ أحمد كاني، مجلة الفرقان- المغرب، عدد (٤٧) لسنة ٢٠٠٢م.
٦٨- نظم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّوَر، للإمام البقاعي، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧ه= ٢٠٠٦م.
٦٩- النكت والعيون، للإمام الماوردي، ط. دار الكتب العلميَّة- بيروت، لبنان، د. ت.
٧٠- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام الرازي، تحقيق: د/ بكري شيخ أمين، ط. دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	ملخص البحث.	
٢	المقدمة.	
٣	التمهيد.	
٤	**المبحث الأول**: مطلع الوحي قراءة في البلاغة.	
٥	﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.	
٦	﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾.	
٧	﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾.	
٨	﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾.	
٩	﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.	
١٠	المبحث الثاني: مطلع الوحي قراءة في التناسب.	
١١	تناسب المطلع في سياق سورته.	
١٢	تناسب المطلع مع سياقه الترتيلي.	
١٣	تناسب المطلع مع سياقه التنزيلي.	
١٤	تناسب المطلع مع ختام الوحي.	
١٥	تناسب المطلع مع المقصود الأعظم من القرآن وحكم نزوله.	
١٦	الخاتمة.	
١٧	ثبت المصادر والمراجع.	
١٨	فهرس الموضوعات.	